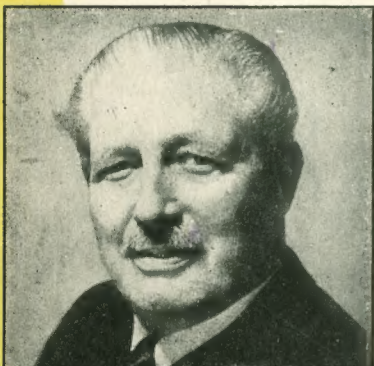




مذاهب وشخصيات

ماكملان

شخصية سياسية



MACMILLAN

Portrait of a Politician

By EMRYS HUGHES



بقلم ايمرى هيوز
عضو مجلس العموم البريطاني

ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدي حافظ

مذاهب وشخصيات

ماكيلان

شخصية سياسية



بقلم ايسرى هيوز
عضو مجلس الأمن البريطاني

ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدي حافظ

تقديم

امبرى هيوز ، مؤلف هذا الكتاب، صحفي بريطاني وعضو عمالي
بمجلس العموم عن جنوب مقاطعة ايرلاند. وهو من أشهر نقاد ماكميلان
«البرلمانيين» ، كما أنه من أوسع الكتاب البريطانيين معرفة بماكميلان
ونشأته وأسرته وحياته الخاصة والعامة ، ويعتبر مؤلفه الذي بين أيدينا ،
والذي أخرجه تحت عنوان «شخصية سياسية» أول ترجمة مستفيضة
لرئيس وزراء بريطانيا الحالي ، ودراسة هذا الكتاب هي في الواقع دراسة
لتطورات الحوادث في بريطانيا ، في فترة من أشد فترات حياتها خطرا ،
وقد يكون في هذه الفترة الحرجة تقرير مصير بريطانيا نهائيا ، وانزواؤها
في ركن من سجل التاريخ .

في هذه الترجمة لحياة هارولد ماكميلان ، يعود بنا المؤلف الى
المساعي البعيدة ، حين اضطر جد ماكميلان الى الهجرة من موطنه في
اسكتلندة ، الى لندن ، تخلصا من الفقر ، وبعد سنوات طويلة من الكفاح ،
استطاع هذا المهاجر الاسكتلندي ، أن يثبت مركزه في ميدان الطباعة
والنشر ، وأن يؤسس دار ماكميلان ، وهي من أكبر دور النشر العالمية .

ويتناول المؤلف حياة هارولد ماكميلان السياسية ، منذ بدايتها يوم
كان بين الشباب التقدمي في حزب المحافظين ، وكيف أنه ثار على ستانلي
بولدوين ونيفيل تشمبرلين ، اللذين تزعموا المحافظين في فترة ما قبل الحرب
العالمية الثانية . وعودته بعد ذلك الى التأليف والنشر ، وهو في ذلك يتحدى
ما استقرت عليه الأوضاع حينذاك ، في ميداني السياسة والاقتصاد .

وينتقل بنا المؤلف بعد ذلك ، الى موقف المعارضين الذي اتخذ
ماكميلان ، من وزارة العمال ، التي تولت حكم بريطانيا في أعقاب الحرب
العالمية الثانية وظهوره كزعيم من زعماء حزب المحافظين بعد إعادة تنظيمه ،
ومساهمته في مهاجمة حزب العمال ، مما أدى الى تثبيت مركز المحافظين
في الحكم ، طوال العقد السادس من القرن العشرين .

ويحدث المؤلف عن الدور الذي قام به ماكميلان ، كوزير للاسكان.
وزبير للدفاع ، ثم للخارجية ، ثم للمالية ، وأخيرا دوره الكبير في
الشئون الداخلية والخارجية ، بصفته رئيسا لوزراء بريطانيا .

ولقد صاحب المؤلف هارولد ماكميلان ، في أثناء زيارته الشهيرة
للانحد السوفييتي عام ١٩٥٩ ، وضمن مؤلفه فصلا عن المحاولات التي قام
بها ماكميلان ، في خلال محادثاته مع خروشوف ، لتسوية الخلافات بين
«الشرق والغرب» .

ويقول ايمرى هيوز ، انه على الرغم من أن كتابه قد صيغ في عبارات تنسم أحيانا بالنقد ، بل التهكم ، فانه قد استند في اعداده الى معلومات صحيحة ، مستقاة من وثائق لرجال السياسة ، من الجانبين الشرقي والغربي . وإذا كانت الصورة التي قدمها عن ماكميلان ، كرجل سياسة ، تثير كثيرا من الجدل ، فانها في الوقت نفسه بعيدة عن أن تكون صورة شاحبة مملة ، بل انها على العكس من ذلك تثير اهتمام القارئ كلما توغل في الموضوع .

يقدم المؤلف استهلالا طريفا ، ينقل فيه ردا للكاتب العالمي الساخر ، برنارد شو ، اذ سئل عن السبب الذي دفعه لتأليف مسرحية عن جان دارك ، فقال شو على الفور : ذلك لكي انقذها من قلم جون درنكوتز . ولعل ايمرى هيوز أيضا ، قد سبق الى اعداد ترجمة ، لهارولد ماكميلان ، كي ينقذه من قلم راندولف تشرشل ، الذي كتب تاريخ حياة انطوني ايدن ، وبذلك أثار حول نفسه عاصفة من نقد الاعضاء المحافظين ، في مجلس العموم البريطاني .

وهنا يقول المؤلف : ان الكتابة عن حياة ايدن ، كرجل سياسة ، أسهل بكثير من الكتابة عن ماكميلان ، ذلك أن حياة ايدن ، ليس فيها من العمق والغموض والتعقيد ، مثل ماضي حياة ماكميلان .

وهو يستشهد بحديث جرى بينه وبين أحد الدبلوماسيين الأجانب ، فقد وجه اليه سؤالا ، عن رأيه في ماكميلان ، وكان رد هذا الدبلوماسي . أي ماكميلان تقصد ؟ ، فماكميلان يتغير بتغير الزمان والمكان والظروف المحيطة به !

ويعلق المؤلف على ذلك قائلا ، انني لن أتعرض لماكميلان في تغيراته الكثيرة ، وسوف أكتفي في كتابي برسم صورتين ، احدهما لهسارولد ماكميلان الشاب المحافظ ، الثائر على حزبه ، الذي يحاول أن يضع لهذا الحزب برنامجا جديدا وسياسة جديدة ، ولكنه لا يتجح في محاولته . أما الصورة الأخرى فهي لماكميلان السياسي الناضج ، في فترة ما بعد الحرب ، الذي استطاع أن يصبح زعيما للمحافظين ، ورئيسا للوزراء .

ويبدى المؤلف رأيه في هاتين الصورتين ، فيقول ان الصورة الأولى ، أي صورة ماكميلان الشاب التقدمي الثائر ، تبعت في نفسه التقدير والاعجاب ، أما الصورة الأخرى ، أي صورة ماكميلان السياسي الناضج ، فهي خليط من المحاسن والمساوى . ذلك ان ماكميلان ، بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، تنكر للمبادئ والمثل العليا ، التي طالما دعا إليها وتغنى بها .

ويوجه المؤلف نقدا لاذعا لماكميلان ، الذي اندفع يوما ما في آرائه التقدمية ، حتى قيل انه يساري ؛ ثم لما أصبح رئيسا للوزراء ، قالت جريدة التايمز ، انه يمثل الجناح اليميني من المحافظين . ويرى حديثا جرى بينه وبين عضو قديم ، في حزب العمال ، عن السبب في تحول ماكميلان من اليسارية التقدمية ، الى اليمينية المحافظة ، وقد رد عليه العضو العمالي

قائلاً: إن المسألة كم تكن في نظر ماكميلان مسألة مبدأ . ولكنها مسألة طبقة . أما وقد ارتقى إلى صفوف الطبقة الأرستقراطية ، فقد نسى ماضيه .

وذكر المؤلف أن ماكميلان ، حينما أصبح رئيساً للوزراء ، لم يعد بعد زميماً حقيقياً للمحافظين ، بل سجيناً في أيديهم ، ورأساً سياسياً أجوف ، بل أن مهمته . بعد أن كانت توجيه المحافظين ، أصبحت مقصورة على تهدئة روع الناظرين منهم ، والتوفيق بين مصالحهم المتضاربة . وصارت خطبه مجرد ترثرة لسياسي . يتحدث وهو يتطلع من بعيد إلى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامج مصلح ، يفكر في الأجيال القادمة .

ويقول المؤلف إن العالم لم ينظر إلى ماكميلان ، نظرة ملؤها التقدير والاحترام ، إلا يوم ذهب إلى الاتحاد السوفيتي ، في محاولة لوضع حد للحرب الباردة ولسباق التسلح ، ولكنه عندما ذهب إلى هناك ، خيب الآمال المعقودة عليه ، بافتقاره إلى الجرأة التي يتطلبها الموقف ، وعجزه عن ابتكار سياسة دولية جديدة ، تحقق السلام ، والتمسك بها كأنها مبدأ وعقيدة .

ويؤازر الكاتب بين موقفين لماكيلان ، أحدهما قبل أن يصبح رئيساً للوزراء ، إذ كان دائما يرفض سياسة المهادنة رفضاً قاطعاً ، وثانيهما بعد أن تولى الرئاسة ، حيث أخذ يهادن العدو الحقيقي للشعب البريطاني ، ممثلاً في تلك الرأسمالية الطاغية ، ومن يسير في ركابها من رجال المال وكبار الملاك ، من أصحاب المزارع والمصانع . وهنا يذكر قانون الإيجارات الجديد ، فيقول أنه جعل بريطانيا نعيماً للملاك ، وجحيماً للعاملين من الكادحين .

ويعيب المؤلف على ماكميلان ، استسلامه لأصحاب المشروع الفردي ، الذين يكسبون الثروات على حساب الشعب ، وعجزه عن إعادة تنظيم الصناعة البريطانية ، بحيث تستطيع مواجهة ظروف العالم الاقتصادية السريعة التغير ونتيجة لذلك فقد عجزت هذه الصناعة ، عن بناء اقتصاد بريطاني سليم ، يضمن للشعب البريطاني اطراد ارتفاع مستوى معيشته .

ويبدى المؤلف دهشته متسائلاً : كيف يتمسك ماكميلان بالمشروع الفردي ، في وقت يتجه فيه العالم إلى التكتلات الاقتصادية ، لا في داخل البلد الواحد ، بل بين المجموعات الدولية أيضاً . وكيف يترك ملوك المال من غير رقابة حقيقية من الدولة في عصر ثبتت فيه جذور الاشتراكية ، وأصبحت للعالم ديناً وعقيدة .

ويعرض المؤلف للحديث ، عن علاقة ماكميلان بالسوق الأوروبية المشتركة ، فيقول إن رئيس وزراء بريطانيا ، حينما عجز عن مواجهة الإصلاحات الحقيقية في بلاده ، بمواجهة المهيمنين على الاستثمارات ، في صراحة وشجاعة ، لجأ إلى السوق المشتركة ، على أنه يجد فيها ملاذاً ، يستطيع تحت لوائها أن يبني مشروعاً طويلاً الأجل ، لضمان مستقبل بريطانيا .

ويتحدث عن سباق التسلح ، فيقول أنه على الرغم من أن ماكميلان ،

يدرك أن ميزانية التسليح تهدم اقتصاد بريطانيا ، فقد أخذ يبدد الأموال على أسلحة عتيقة ، ويقامر على أسلحة جديدة ، نصيبها الفشل ، مثل « السهم الأزرق » ويضيع جهود العلماء والفنيين والعمال البريطانيين ، لتحقيق حلم خيالي لا يعيش إلا في رأسه ، وهو أن تصبح بريطانيا قوة ذرية مستقلة ، تستطيع الوقوف وحدها في وجه الاتحاد السوفيتي .

ويوازن بين موقف كيندي من حماية الشعب الأمريكي وموقف ماكميلان من العجز عن حماية الشعب البريطاني ، فيقول إن كيندي صرح بأنه لا بد من بناء مخابىء ، تحمي الأمريكيين من الغارات الذرية ، في حين أن ماكميلان ، اعترف بأنه ليس هناك ملجأ للبريطانيين من الإشعاع الذري ، الذي تخلفه الغارات ، لأن بريطانيا ليس لديها المال اللازم لذلك .

ويقرر فصلا خاصا للعدوان البريطاني على مصر عام ١٩٥٦ ويسميه جينا « مغامرة السويس » وأحيانا « كارثة السويس » . فيؤكد أن ماكميلان كان بين مجموعة الوزراء البريطانيين الذين كون منهم ابدن « الحلقة الداخلية » فكانوا يعقدون اجتماعاتهم الخاصة لتدبير حملة السويس من غير اشرار بقية الوزراء في هذه الاجتماعات . وعلى الرغم من أن ماكميلان كان في ذلك الوقت وزيرا للمالية ويدرك ادراكا تاما متاعب بريطانيا الاقتصادية وما تواجهه الخزنة العامة من أعباء ثقيلة ، وعلى الرغم من ادراكه التام لما تتطلبه مغامرة السويس من نفقات باهظة تنوء بحملها ميزانية الدولة ، لم يبد أي اعتراض على اجراءات انغلوني ابدن ، بل كان يؤيدها كل التأييد .

ويقول ايمري هيز : ان جون سترانشي ، في اثناء مناقشة أزمة السويس في مجلس العموم ، طلب الى ماكميلان الاعتراف بأن حملة السويس كانت سياسة خاطئة . ترتبت عليها حملة عسكرية خاطئة . موجهة الى أهداف خاطئة .

وقرر أنيورين بيفان أن اليريجادير « هيد » وزير الحرب السابق اتهم زملاءه الوزراء بأنهم وضعوا خطة حملة السويس وهم يعلمون أنها عملية انتحارية ، ثم فروا من الميدان قبل تنفيذها .

ويستخلص ايمري هيز من ذلك كله أن ماكميلان يتحمل نصيبه الكامل في حملة السويس المشؤمة .

ويختتم المؤلف كتابه قائلا ، ان ما ذكره ليس كل شيء في حياة ماكميلان ، فهو لا يزال رئيسا للوزراء ، واذن فهو لا يزال الممثل الاول ، على المسرح السياسي في بريطانيا . ولكن ماكميلان حتى اليوم ، قد فشل في تحقيق هدفين حيويين ، لضمان مستقبل بريطانيا ، أولهما إعادة تنظيم اقتصادها لمواجهة الاخطار المقبلة ، وثانيهما تمكينها من دخول مشرف في النادي الذري .

مقدمة المؤلف

حينما سئل برنارد : ما الذى حدا بك الى تأليف مسرحية عن جان دارك ؟ رد قائلا : لكى انقذها من قلم جون درنكوتر .

وانا لا ادعى اننى اخرجت هذا الكتاب عن هارولد ماكميلان لانقذه من راندولف تشرشل . والواقع ان راندولف سهل الاثارة لم وقد تغريه قصتى هذه فيكتب ترجمة لحياة ماكميلان ، تلقى لنا ضوئا جديدا على مأساة السويس ، بل قد تفشى لنا كثيرا من الاسرار السياسية الهامة التى تنطوى عليها اصابير حزب المحافظين . ومن رأى ان راندولف تشرشل قد ادى خدمة عامة بكتابة ترجمة لانطوني ايدن ، واذا كان المحافظون فى مجلس العموم وفى الريف الانجليزى قد تصدوا للرد على راندولف تشرشل حينما كتب ترجمة انطوني ايدن ، فلا اظن انهم سوف يبدون كثيرا من التحمس اذا ما علموا ان راندولف سوف يكتب ترجمة لحياة هارولد ماكميلان . وعلى اية حال فسواء كتب راندولف ، هو وغيره من المحافظين ، عن حياة ماكميلان ، فقد مهدت لهم الطريق وبذلك أصبحت مهمتهم سهلة ، ذلك لانى جمعت المعلومات والمستندات التى تنظيها الكتابة عن هذا الموضوع فى مجلد واحد هو ذلك الذى اضعه بين ايدي القراء .

ان كل رئيس وزراء فى بريطانيا يستحق أن تكتب عنه ترجمة وان لم يكن على شئ من الأهمية ، فهذه الترجمة تعتبر مرجعا للباحثين .

والواقع ان شخصية ماكميلان اكثر تعقيدا ، امام كاتب التراجم ، من انطوني ايدن ، فهو رجل ذو شخصية متعددة الجوانب ، ولقد سألت مرة أحد الدبلوماسيين الاجانب : ما رأيك فى ماكميلان ؟ فاجاب : اى ماكميلان تقصد ؟ ذلك ان ماكميلان يتغير بتغير المواقف والظروف ، فيبدو لك فى شخصية لا عهد لك بها من قبل .

ومهما يكن من امر فقد اقتصررت فى كتابى هذا على دراسة ماكميلان فى صورتين : الاولى صورة ماكميلان الشاب المحافظ الثار على حزبه فى فترة ما قبل الحرب ، بما فيها من خروج على التقاليد الحزبية ، وما تتضمنه من محاولته وضع برنامج جديد لحزب المحافظين واقامته على اسس سياسية جديدة وتغيير نظرتة العامة وهو فى هذا لم يوفق كثيرا . اما الصورة الاخرى فهى للماكميلان ، السياسى الناضج فى فترة ما بعد الحرب ، وقد اصبح زعيما ورئيسا للوزراء .

اما الصورة الاولى فهى تحظى بعطفى وتقديرى ، واما الصورة الاخرى فهى مزيج من المحاسن والمساوىء ، وقد يعثرها البعض سوء

تقدير سياسي ، وعلى أية حال فسوف يكتشفها القارئ الناقد في أثناء تصفحه الكتاب .

وقد يصعب على محافظ ، سليم المبدأ ، أن يحاول كتابة ترجمة لهارولد ماكميلان ، فهو لا يكاد يقرأ بعض خطب ماكميلان أو كتاباته السابقة حتى يشك في أنه من المحافظين .

والحقيقة التي تثير الدهشة هي : كيف انتهى الحال بماكميلان إلى أن يصبح بين الجناح الأيمن من المحافظين ، على حد قول جريدة «التايمز» حينما تولى رئاسة الوزارة . ولكن ماذا حدث ؟ ولماذا تنكر ماكميلان لمبادئه القديمة ؟ ولماذا اتجه اتجاهها يمينيا وأصبح من المحافظين ، ولم يتجه إلى اليسار ويصبح من العمال ؟

لو أن ماكميلان انضم إلى العمال منذ شبابه فلا شك في أنه كان في استطاعته أن يتولى زعامة حزب العمال . ولقد مرت به فترة أبدى فيها اهتماما جديا بهذا الحزب ، حتى لقد ظن الجناح اليساري من العمال أنه سوف ينضم إليهم انضماما عاجلا .

حينما وجه ماكميلان خطابا إلى شباب المحافظين أبدى أنه فر خوفا من وجه كارل ماركس ، ولكن ماركس لم يكن في ذلك الوقت غولا مفزعا ، كما لم يكن في طريقه لزعامة العمال !

لقد وجهت إلى عضو قديم من العمال في مجلس العموم البريطاني سؤالا عن السبب في أن ماكميلان - وقد وجد من المستحيل عليه أن يتخذ طريقا وسطا بين اليمين واليسار - فضل اليمين على اليسار ، ورد على النائب العمالي قائلا : أن المسألة في نظر ماكميلان لم تكن مسألة مبادئ ، بل مسألة طبقة ، وقد انحاز خطأ إلى جانب المحافظين ولم يستطع التخلص منهم .

وهذا صحيح لأن ماكميلان حينما أصبح رئيسا للوزراء ، لم يعد زعيما حقيقيا لحزب المحافظين ، بل أسيرا لديه ، ورأسا سياسيا فارغا يتحدث باسم الحزب ومدافعا عن أصحاب الامتيازات الخاصة الذين كثيرا ما تحداهم ، وأصبحت خطاباته ثروة السياسي الذي يرمى بصره إلى الانتخابات القادمة ، بدلا من أن تكون برنامجا لرجل الإصلاح الذي يعمل لخدمة الأجيال القادمة .

والعمل الوحيد في حياته ، كرئيس للوزراء ، أعنى العمل الذي يتسم بالشجاعة والاقدام هو رحلته إلى الاتحاد السوفيتي للعمل على تخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب . لقد تجددت الآمال في أوروبا الغربية برحلته ، وحملت الشعوب الغربية طالعها الموفق أن ظهر من بينها رجل يعمل حقا من أجل السلام ، ويضع حدا لسباق التسلح ويضع أسس اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي تؤدي إلى انتهاء النزاع . ولكن هذه الآمال تبخرت ، إذ أن ماكميلان لم يجد لديه الشجاعة الكافية ولا القدرة على ابتكار سياسة دولية جديدة والعمل على تنفيذها في عزم وتصميم . وإلى ماكميلان نفسه أسيرا للسياسة الخارجية كما كان أسيرا للسياسة الداخلية .

كان ماكميلان قبل الحرب من أشد المعارضين لسياسة التهذبة ، ولكن لما أصبح رئيسا للوزراء لم يتردد في اتباع سياسة التهذبة وتطبيقها في معاملاته مع أعداء الشعب البريطاني الحقيقيين في الجبهة الداخلية ، وهم كبار الرأسماليين وأصحاب الضياع الواسعة والشركات الكبرى . والمضاربون في بورصة الأوراق المالية ، وقانصو المكيئات الصغيرة من أصحابها ، والفائزون بالعطاءات الكبرى .

ان حكومة المحافظين ، باصدارها قانون الإيجارات الذي رفع القيمة الإيجارية على الطبقة العاملة ، جعل بريطانيا نعيما للملاك وجحيما لللايين الكادحين من أبناء الشعب البريطاني .

ان ماكميلان قد رفع الإيجارات ، وألقى المعونة المالية للحاصلات الزراعية ، وزاد الرسوم الصحية ، وبذلك اضطر العمال الى المطالبة بزيادة الأجور ، مما أدى الى التضخم النقدي ومايتبعه حتما من ازمام مالية واقتصادية .

كذلك فان استسلام ماكميلان للمضاربين على المشروعات الفردية والهاربين من دفع الضرائب ، وقشله في اعداد تخطيط للصناعة البريطانية واعادة تنظيمها لمواجهة الموقف الاقتصادي السريع التغير في عالمنا الحديث ، جعل من المجال بناء هيكل اقتصادي سليم في بريطانيا يضمن للشعب اطراد رفع مستوى المعيشة والرخاء الحقيقي في المستقبل .

وفي حين ان العالم يتجه الآن اتجاها عاجلا نحو التكتل والاحتكارات الكبرى ، فان ماكميلان لا يزال يتحدث في عبارات جوفاء عن المشروع الفردي ، ويرفض أن تفرض الدولة اشرافها على أصحاب المشروعات الكبرى لتضمن حقوق الشعب ضد هؤلاء الانتهازيين والاستغلاليين .

ولا يتسع المقام في هذا الكتاب لشن حملة كاملة ضد ماكميلان وسجله العاجل بالتخاذل امام ساداته الرأسماليين .

ولما فشل أخيرا راح يبحث عن ملجأ في ظل السوق الأوربية المشتركة بعد أن عجز في وضع خطة طويلة الأجل لمستقبل بريطانيا .

وعلى الرغم من ادراكه ان سباق التسلح يكلف بريطانيا ثمنا باهظا فقد أخذ يواصل التسلح ، ويبدد الأموال بعنة ويسرة على أسلحة أصبحت ، مع التطور ، عتيقة ، ويقامر على أسلحة جديدة عظيمة التكاليف مثل « صاروخ السهم الأزرق » ويبدد جهود العمال والفنيين والعلماء البريطانيين سعيًا وراء انتاج رادع نووي بريطاني مستقل عن الأسلحة النووية الأمريكية ، مفترضا أنه يجب على بريطانيا ، في العصر الذري ، ان تعتمد على نفسها اذا ما خاضت غمار حرب ضد الاتحاد السوفييتي . وعلى الرغم من كل ذلك فبعد انتهاء خمس سنوات على توليه رئاسة الوزارة البريطانية كان العسكريون أول من وجه النقد المر الى سياسته الدفاعية ، وطالبوه بادخال نظام التجنيد الإجباري لتقوية القوات المسلحة البريطانية التي تعوزها الأسلحة الحديثة . وبخضوعه لأمريكا جعل بريطانيا تقف في الصفوف الأولى اذا ما نشبت

حرب نووية ، ويقولون ان تكون بريطانيا قاعدة امريكية . عرض
للبريطانيين الى اشد الأخطار مع اصفر قدر من الوقاية .

وفي حين كان كنيدي يطمئن الشعب الامريكي على أنه لا بد من
اعداد ما يكفي من المخابىء ضد الفارات النووية، نجد ماكملان يعترف
امام الشعب البريطاني بأنه لن يستطيع أن يوفر له المخابىء التي تقيه
الاشعاع الذرى لأنه ليس لديه المال اللازم لذلك .

وانك لتقرأ تذييلا للكتاب الابيض الصادر عام ١٩٦٢ خاصا بشئون
الدفاع البريطاني . وقد ورد في هذا التذييل ان الحكومة البريطانية تفكر
في وضع برنامج لنقل الامهات والأطفال وغيرهم ممن يستحقون قسما
أكبر من الرعاية ، من المراكز الكبرى المزدحمة بالسكان . اما أين يتم
توزيع هؤلاء فهو ما لا يدريه أحد !

لقد بلغنا المرحلة التي نبشأ فيها السير هوبرت واطسون وات
مخترع الرادار ، أن قصة ذلك الرادع النووي الكبير تهديد لبقائنا
ولبقاء الجنس البشرى بأجمعه .

وهذا الكتاب ليس نهاية القصة ، لأن هارولد ماكملان لا يزال
رئيسا للوزراء ، ولا يزال الممثل الاول على المسرح السياسى البريطانى،
وان كانت الانتخابات الفرعية ، التي اجريت في مارس ١٩٦٢ ، قد
اثبتت أن المحافظين تهتز من تحتهم المقاعد ، وأن السياسة البريطانية
فى بوتقة الصهر ، بل ان مستقبل بريطانيا كله - وليست سياسة
بريطانيا فقط - معلق بخيط .

فقد تورطت بريطانيا فيما سماه ماكملان « سباق التسلح النووي
الرهيب » ولكن ليس هناك من الأدلة ما يشير الى أن بريطانيا قد
حققت فوزا في هذا السباق . أو انها في الطريق لتحقيقه ، وهذا كله
يجرى وسط أزمة خانقة مالية واقتصادية . ومن ناحية أخرى فنحن
نجرى مفاوضات للانضمام الى السوق الاوروبية المشتركة وهذا يعنى
تطورا ثوريا في اقتصادنا وفي حياتنا القومية .

ان ما يحدث لماكملان يهنا ، لأنه مرتبط بمصالحنا ، والواقع
ان السياسة البريطانية أصبحت من الأهمية بدرجة لا عهد لنا بها
من قبل .

ويبدو أن الفصول الأخيرة من حياة ماكملان السياسية قد
تؤدى بالشعب البريطانى الى خطر داهم ، واذا كان شباب المحافظين
في حاجة الى كتاب عن السياسة الحديثة ، فما هو ذا كتابي بين أيديهم،
وعليهم أن يتعلموا منه أكبر قدر من رئيس وزرائهم وحياته السياسية،
وكيف وصل الى منصبه الخطير وما فعله حينما تولى هذا المنصب .

ايمرى هيوز

١٧ مارس ١٩٦٢

في طريق إلى إنجلترا

تعرض أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني ، ذات يوم ، للحديث عن جد ماكميلان ، فوقف هارولد ماكميلان ليعلن للمجلس أن جده كان اسكتلنديا فقيرا ، وأنه نزح من مسقط رأسه في اسكتلندة الى إنجلترا سعيًا وراء الرزق ، وقد كان من حقه أن يفعل ذلك . ولو أن الحكومة الانجليزية في عصر الدكتور جونسون ، كانت قد أصدرت تشريعا يحرم على الاسكتلنديين الإقامة في إنجلترا ، كما فعلت حكومة ماكميلان ضد الايرلنديين وضد سكان جزر الهند الغربية وضد بقية أبناء الكومنولث، لو كان ذلك قد تم لما استطاعت أسرة ماكميلان الإقامة في لندن، ولاندرى، اكان ذلك لخير إنجلترا أم لشرها .

لقد كتب برنارد شو ، في رسالة وجهها الى عام ١٩٤٦ يقول : نحن في حاجة الى الاسكتلنديين ، لانهم يفهمون الأمور السياسية فهما جيدا أما الانجليز فلم يكتمل نضجهم السياسي بعد . ولما كان شو ايرلنديا فهو رجل موضوعي ، والواقع انه منذ بداية القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر ، تولى رئاسة الوزارة البريطانية رجال من أصل اسكتلندي ، وهؤلاء هم : بلفور ، وكامبل بانرمان ، وبونار لو ، ورامزي مكدونالد ، وآخرى ماكميلان .

ولا ننسى في هذا المقام الاعتراف بالفضل لبنت ماكميلان في تنقيف الشعوب التي تتكلم الانجليزية ، فدار ماكميلان للنشر لم تقصر نشاطها على نشر أحسن المؤلفات الانجليزية ، بل انها زودت بقية العالم بكثير من المؤلفات الانجليزية ، وبذلك ساهمت مساهمة قوية في نشر الأدب والثقافة والحضارة في جميع انحاء الارض . وقل أن تجد مكتبة انجليزية خاصة أو عامة ، الا وقد ساهمت دار ماكميلان في تزويدها بعدد كبير من الكتب . والى هذه الدار يرجع جانب كبير من الفضل في نشر طبعات رخيصة لمؤلفات شكسبير ، وميلتون ، وتينسون ، وشارلس كنجزلي ، ولويس كارول ، وتوماس هاردي ، وديارد كبلنج ، وغيرهم مما تجده مسجلا في قوائم ماكميلان .

ويقول هارولد ماكميلان : انني وشقيقي نعتمد الى حد كبير على ماخلفه لنا جدنا ، وارجو أن يسعد ابنؤنا بما خلفناه لهم .

ولندكر نبذة من تاريخ أسرة ماكميلان ، فنقول ان دانييل ماكميلان مؤسس دار ماكميلان للنشر ولد عام ١٨١٣ ، في جزيرة أرنان عند مصب نهر الكلايد . وكان جد دانييل مزارعا صغيرا يجمع الايجار من بقية الفلاحين ويقدمه الى صاحب الارض ، كما كان يزود هؤلاء الفلاحين بما يلزمهم من الحبوب . وكان هذا الرجل كثير العيال ، ولكن حدث وباء في

استكلندة فمات بسببه كثير من ابنائه ، وهذا ماكان يصيب الفقراء كلما اجتاحت البلاد وباء . ومن رسائل دانييل يتبين لنا أن الاسرة كانت تعاني أشد حالات الاملاق ، حتى لقد كانت أحيانا توشك أن تموت جوعا .

وهناك فيما خلفه لنا الشاعر الاسكتلندى ، روبرت بيرنز ، قصيدة تصور ماكان عليه الفلاحون في هذه البلاد من تعاسة ويؤس ، حتى أن أحدهم يبدو لك وكأنه يجمع بين زهد النسك وشقاء الرقيق .

ولما كان وتكان ماكميلان كثير العيال فقد كانت مصيبتة أشد ، وأصبح مجرد البقاء في هذه الدنيا بالنسبة له سلسلة لانهاية لها من الكفاح المضنى وخاصة أن المالك لم يكن يرحم فلاحيه وأجراءه .

وقد كان فلاحو « أران » وهى مسقط رأس اسرة ماكميلان ، يفلحون ارضهم طبقا لعقود طويلة الاجل مع المالك ، ولكن حدث عام ١٨١٥ أن انتهت عقود الإيجار القديمة ، فارتفعت الاجارات الجديدة وأصبح من المحال على كثير من العائلات مواصلة الإقامة ، فلم يكن بوسعهم الا الهجرة الى الولايات المتحدة وكندا والبلاد الاخرى فيما وراء البحار . وكان من بين من هجروا مسقط رأسهم ، والد دانييل ماكميلان ، فقد نزح الى مدينة إرفين ليرعى إبقاره القليلة ويزرع قطعة صغيرة من الارض ويعمل في نقل الفحم من المنجم الى المدينة .

وأخيرا مات الرجل من شدة الإعياء وسوء الغذاء والمرض ، ومن هنا أرسلت العائلة دانييل ماكميلان ليعمل في دار صغيرة لتغليف الكتب وبيعها ، وظل يعمل في الدار سبع سنين بأجر قدره شلن ونصف شلن في الأسبوع .

وبعد أن تعلم دانييل فنه الجديد رحل الى جلاسجو ليعمل في أحد محال بيع الكتب . ويصف دانييل هذه الفترة من حياته قائلا : كنت أواصل العمل من الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل . كنت أبدأ عملى في منتصف الساعة صباحا ولا أعود الى أهلى الا بعد العاشرة أو الحادية عشرة مساء ! حتى لقد هذ الاجهاد قوى واعتلت صحتى .

وكان له صديق يدعى جيمس ماكهلوز يشتغل في لندن ، فدماه اليها كي يبحث عن عمل في هذا البلد الكبير . وهكذا ولّى دانييل ماكميلان وجهه شطر لندن ، وهناك أخذ يتردد على محال بيع الكتب باحثا عن عمل . وكثيرا ماكان دانييل ماكميلان يردد خائبا فيجلس فوق رصيف الشارع باكيا بكاء حارا ويبتهل الى الله أن يفرج كربته . وأخيرا عمل في مكتبة سيلى ، في فليت ستريت ، بمرتب سنوى قدره ستون جنيتها .

وفي لندن حضر اليه شقيقه واستطاعا ، ببعض مالديهما من المال وبمبلغ آخر اقترضاه ، أن ينشئا محلا لبيع الكتب في كمبردج ، وقد تحول عملهما من بيع الكتب الى دار للنشر ، وما ان نمت الدار . وازدهرت وبدأ دانييل يجنى ثمار كده وصراعه ضد الفقر والمرض ، حتى عاجلته منيته وهو في سن الخامسة والأربعين . وهذا وقد نشر توماس هيوز رسائل دانييل ماكميلان ، ومنها يتبين لنا أن هذا الرجل كان شجاعا قديرا قوى العزيمة الى حد كبير ، ولم يحظ الرجل بتعليم أكاديمى ،

ولكنه تعلم كثيرا في مدرسة الحياة حتى لقد كان موضع تقدير رجال
الادب المتنازين الذين كانوا يعرفون له مواهبه وخلقه القوى .

وكان من بين أصدقائه القس فردريك دينسون ، وهو من زعماء
الاشتراكية المسيحية ، كما كان الشاعر تشارلس كنجزلى من أصدقائه
الحميمين .

وقد اكتشف آل ماكميلان أن كراهية الانجليز للاسكتلنديين لم تنته
عند عصر الدكتور جونسون ، ولذلك كان من أول مطبوعاتهم رسالة
فلسفية عنوانها : الاسئلة الثلاثة الكبرى : من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وإلى
أين أذهب ؟ وحينما ذاعت الرسالة أنبرى لونغمان ، وهو ناشر منافس
لآل ماكميلان ، للرد عليها فقال : أما الجواب عن السؤال الاول فهو :
انت اسكتلندي ، وأما عن السؤال الثاني فالجواب : انك قادم من بلاد
أكالة الكعك ، وأما الرد على السؤال الثالث فهو : فلتذهب إلى الشيطان !

نتقل من دانييل ماكميلان ، جد صاحبنا رئيس الوزراء ، إلى والده
موريس كروفورد ماكميلان ، وإلى هذا الرجل يرجع الفضل في انشاء
فروع لدار ماكميلان فيما وراء البحار وبخاصة في الهند .

وبحدثنا تشارلس مورجان في كتابه « دار ماكميلان » وهو خير من
كتب عن هذه الاسرة ونشاطها ، فيقول : ان دار ماكميلان استطاعت نشر
كل ما يلزم البلاد الواقعة فيما وراء البحار ، فنشرت كتباً مدرسية لابناء
البوير في جنوب افريقيا ، وباللغة السواحلية لابناء شرقي افريقيا ،
وباللغة العربية للمصريين ، كما نشرت كتباً لابناء الصين واستراليا .

وقد تزوج موريس ماكميلان من هيلين بيلز ، وهي ابنة طبيب
امريكي من ولاية انديانا ، وأنجب الزوجان هارولد ماكميلان ، رئيس
الوزراء الحالي ، الذي ولد في لندن يوم ١٠ فبراير عام ١٨٩٤ .

ايتون - أكسفورد - عمل في البحر الملكي

الاشتغال بالسياسة

نشأ هارولد في بيئة تختلف تمام الاختلاف عن بيئة جده ، فقد
كان أبواه على درجة كبيرة من الثراء بحيث استطاعا أن يهيئا له تعليماً
راقياً كما هيئاً له الفرصة التي تتبأ لابناء الطبقة الارستوقراطية وابناء
الارباب من الطبقة الوسطى .

وقد ظل هارولد خمس سنوات في كلية ايتون بين أبناء الامراء
والنبوتات والنورديات وغيرهم من أبناء العائلات الكريمة وذوى الثراء .

وفي هذه الكلية يتلقى الطلاب العلوم التي تؤهلهم للمناصب القيادية
ولأن يكونوا في المستقبل حكاماً في بلادهم وفي بلاد الامبراطورية الواسعة

وكانت والدته هارولد تتحدث الفرنسية ولذلك استطاع عن طريقها ، أن يتعلم الفرنسية وأن يتحدثها بطلاقة .

وقد انتقل هارولد من إيتون الى كلية باليول في أكسفورد ، وهناك استطاع بذلك وكفائه أن يمتاز بين أقرانه . وفي أثناء الحرب العالمية الأولى التحق بفرقة الحرس ، ورقى الى رتبة « كابتن » وقد أصيب ثلاث مرات ومنح وسام الصليب العسكري تقديرا لشجاعته . وبعد الحرب أصبح ياورا لدوق ديفونشير ، الحاكم العام في كندا .

وكانت هذه المناصب الرفيعة في تلك الايام وقفا على كبار النبلاء ، واذ كان هارولد ياورا لدوق ديفونشير فقد أخذ يظهر بمظاهر النبيل والسمو والشرف ، وهو وان لم ينحدر من أسرة نبيلة ، وعلى الرغم من أن الدم الأزرق لايجرى في عروقه ، فقد كان لطلعته الجميلة وطوله القارع ومايحيط به من عظمة وبهاء ، أثر كبير في تكوين شخصيته الأرستوقراطية .

وأخيرا تزوج هارولد إحدى بنات الدوق ، وكان زفافه اليها فرح الموسم في لندن خصوصا وقد شرفت بحضورها الملكة الكسندرا والاميرة لويز ، كما حضره الكاتب العالمي توماس هاردى .

ولم يرق لهارولد أن يعود الى عمله في الطباعة والنشر بعد أن ارتقى الى مصاف الطبقة الأرستوقراطية ، وهنا بدأ يفكر في الاشتغال بالسياسة ولكن الى أين يتجه ؟ لقد كانت لديه جميع المؤهلات اللازمة لعضو محافظ في مجلس العموم البريطانى ، فلديه الثراء ولديه الروابط بالاسر الأرستوقراطية . الخ .

ولا ضير في أن يصبح ابن ناشر كتب نائبا محافظا ، فقد كان مجلس العموم حينذاك مليئا بأبناء الطبقة المتوسطة الغنية من أصحاب المناجم والمصانع وأحواض بناء السفن ، وبأبناء أولئك الذين جمعوا ثرواتهم من المضاربة في البورصة .

وفي الانتخابات العامة في ديسمبر ١٩٢٣ رشح حزب المحافظين هارولد لعضوية مجلس العموم عن دائرة ستوكتون . وفي هذه الدائرة بدأ صراع انتخابى عنيف بين هارولد ماكميلان ، عن المحافظين ، والمajor ستيوارت ، عن الأحرار ، ومرشح ثالث للعمال . وقد فاز مرشح الأحرار على ماكميلان بأغلبية ٧٣ صوتا فقط .

وفي عام ١٩٢٤ أعيدت الانتخابات العامة ، بعد سقوط وزارة العمال الأولى ، وفي هذه المرة فاز هارولد ماكميلان بعضوية مجلس العموم عن حزب المحافظين في دائرة ستوكتون . وهكذا أصبح عضو برلمان في سن الثلاثين وهنا بدأ حياته السياسية .

محافظ من الجناح اليسارى

لا يتصور أحد أن هارولد ماكميلان خاض غمار السياسة بسهولة
أنتى تنزلق بها صفار البط الى الماء ، فقد مضت خمسة أشهر على افتتاح
الدورة البرلمانية قبل أن يلقى خطابه البرلماني الاول . وقد كان ذلك حين
نظر الميزانية يوم ٣٠ من ابريل ١٩٢٥ ، وكان وزير المالية حينذاك هو
ونستون تشرشل الذى انتقل حديثا من صفوف الاحرار الى صفوف
المحافظين . ولما عرض تشرشل مشروع الميزانية واجه تقدا شديدا من
فيليب سنورن وزير المالية في وزارة العمال المستقلة . وباستثناء بند
خاص بمعاشات الارامل ، كانت ميزانية تشرشل خالية من أى اتجاه
تحو مساعدة المحتاجين ، بل انها كانت فى الواقع ميزانية « أثرياء
المحافظين » .

ولما وقف هارولد ماكميلان لالقاء خطابه البرلماني الاول ، وفد
الكثيرون على مجلس العموم لسماع هذا الخطاب . وكانت بداية الخطاب
عادية ، ككل خطاب برلماني اول ، ولكن بعد قليل اندفع هارولد ، ليرد
ردودا عنيفة على سنورن ويفند حججه تفنيدا منطقيا ، ثم أشار في خطابه
الى مشروع المعاهدة الروسية التى كانت من بين اسباب سقوط وزارة
العمال . وأشار الى نداء ، كان رامزى ماكدونالد قد وجهه الى شباب
المحافظين لينضموا تحت لوائه ، قائلا أن ماكدونالد لا يفهم عقلية شباب
المحافظين حتى لقد خيل اليه أنهم قليلو الخبرة ومن السهل اغراؤهم .
وتحدث عن اشتراكية رامزى ماكدونالد ، فقال انها خليط عجيب من
الماركسية ومن اشتراكية كويدن وغيرها . وأخيرا طالب بتأييد مشروع
الميزانية الذى قدمه تشرشل .

والمفهوم من خطاب هارولد ماكميلان أنه لم يكن من المحافظين
الرجعيين ، ولكنه تقدمى فى آرائه واتجاهه العام . ولقد أخذ هذا الشاب
المحافظ التقدمى يتساءل : لم لا يكون للمحافظين سياسة خاصة بالبطالة؟
ولماذا يظل حزب المحافظين حزب الراسماليين الذين ينتزعون القوت من
أفواه العمال الكادحين ؟

وقد شارك ماكميلان فى هذا الاتجاه عدد من شباب المحافظين ،
فكونوا فريقا خاصا بهم وأخذوا يدرسون المشاكل الخاصة بالعمال
وخصوصا مشكلة البطالة .

وفى عام ١٩٢٧ نشرت هذه الجماعة أول كتاب لها تحت اسم
« الصناعة والدولة » وقد تضمن هذا الكتاب دعوة موجهة الى حزب
المحافظين ، كى يتخذ له سياسة صناعية واضحة . وكانت تغلب على
الكتاب ، فى بعض الاحيان ، اتجاهات الجمعية الفابية ، وكذلك اتجاهات
الاتحاد المعارض للاشتراكية . ويستخلص من حياة هارولد ماكميلان
البرلمانية بوجه عام ، فى الفترة من ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ ، أنه كان محافظا
يساريا ، ولكن كان من الصعب حينذاك وضع تعريف دقيق واضح
للمحافظ اليسارى . وفى عام ١٩٢٩ سقط فى الانتخابات العامة ، ثم

اعيد انتخابه عام ١٩٣١ وظل نائبا عن ستوتون حتى عام ١٩٤٥ .
وفي هذه الفترة قام جيمس جونستون ، المندوب البرلماني لصحيفة
« يوركشير بوست » بوضع كتاب حلل فيه شخصية ماكميلان كعضو في
البرلمان . ولتنقل للقارئ بعض ماكتبه جونستون : . . .

ان الشباب المتحمس في حزب المحافظين ، ذلك الشباب الذي
يسعى الى الاصلاح الاجتماعى ، يطلق على جماعته من باب الفكاهة اسم
« جمعية الشبان المسيحية » . ومن أبرز شخصيات هذه الجماعة
الكابتن هارولد ماكميلان ، اذ انه في الحقيقة اكفأ المتحدثين باسم الجماعة
وهو يمتاز بالاستقامة والاعتدال والاخلاص ، وهو في موقفه البرلماني
يذكرنا بالمستر بونارلو .

والكابتن ماكميلان لديه قائمة طويلة من الاصلاحات الاجتماعية
وهو يرى ان إعادة بناء المجتمع خير من « ترقيعسه » . والمسائل التي
تجذبده أكثر من غيرها هي المسائل الخاصة بالبطالة ، والتنظيم الصناعى
وأعداد فئات الاجور بحيث تتناسب مع الاوضاع الاجتماعية والصناعية .
هكذا يبدو لنا ماكميلان في اول حياته البرلمانية سياسيا طاهر
الدليل نقى السريرة يسمى باخلاص لخدمة الجماهير ولم تفسده الحياة
البرلمانية بعد .

وفي عام ١٩٣٣ نشر ماكميلان كتابا جديدا تحت عنوان « إعادة
التنظيم - الدعوة الى سياسة قومية » . وهو يطالب في كتابه هذا بوضع
اسس جديدة للتنظيم الاقتصادى والاجتماعى بحيث تتلاءم مع الظروف
المتغيرة في عالم اليوم .

الاتجاه الى التخطيط

هناك فصل عنوانه « الاتجاه نحو التخطيط » يقول ان فكر
التخطيط أصبحت هي المسيطرة على الحكومات فيما يتعلق بالحياسة
التجارية والصناعية . ولم تجد هذه الفكرة رواجاً بين العلماء وأصحاب
النظريات فقط ، ولكن أخذ بها أرباب الصناعة أيضاً ووجدوا فيها ضرورة
لا بد منها لاداء أعمالهم اليومية .

ويقول ماكميلان ، رداً على أولئك الذين يطمون بالعودة الى الماضي
ويشددون ضد أى اقتراح جديد بالتنظيم ، ان العالم قد تغير ، وان العودة
الى القديم أصبحت مستحيلة من النواحي الفنية والسياسية
والاقتصادية . ولم يكن التخطيط الجديد الذى يدعو اليه ماكميلان
تخطيطاً اشتراكياً ، ولكنه تخطيط مركزى يتم عن طريق اخضاع الانتاج
الى توجيه سلطة مركزية بحيث يمتنع التكرار والازدواج بين مختلف
الصناعات ، وكذلك يمتنع انتاج كميات تزيد كثيراً على حاجة الاستهلاك

وضرب مثلا لبرنامج الإصلاح : ما تم من إنشاء لجنة الكهرباء ، وقانون النقل بمدينة لندن . ولجنة التسويق فكلها هيئات يقوم عملها على التخطيط . ويتلخص برنامجه فيما يلي :

١ - الاعتراف بمبدأ التخطيط .

٢ - إنشاء هيئة مركزية للإشراف على الصناعة البريطانية ، ووضع التخطيط اللازم لتنمية هذه الصناعة .

٣ - أن تقوم الدولة بوضع الخطوط العريضة للتخطيط الصناعي في بريطانيا فتقيمه على أساسين : أحدهما يستند الى الاحتكاكات الكبرى ، والآخر يقوم على أساس المنافع العامة .

وهذا البرنامج كان يبدو شديد التطرف في تلك الأيام ، حتى لقد قال عنه أحد المحافظين من أتباع المدرسة القديمة انه من منتصف الطريق نحو الاشتراكية .

وقد حدد هارولد ماكميلان ، في كتابه ، وضع آرائه بين اليمينية واليسارية فقال : ان البرنامج الذي تضمنه كتابي هذا سوف يوصف من ناحية العناصر اليمينية بأنه « اشتراكية » ، وسوف تصفه العناصر اليسارية بأنه « فاشية » وهو في الواقع ليس اشتراكيا ولا فاشيا ، وقد يقال انه تنظيم بيروقراطي يتناول كل مشروع فردي بالتعديل والتحديد ويفرض عليه القيود اللازمة للإشراف على الاسعار والأرباح والاجور والمزببات والإيجارات وكل ما تنطوي عليه عوامل التنافس السوقية . وهذا أيضا غير صحيح . والواقع ان البرنامج بعيد كل البعد عن التدخل في الحرية السياسية ، وهو ضد التغيير الثوري وجوهره التخطيط ، أي أن تسير عوامل الانتاج وفق نظام معين لا يتعارض مع سلامة الاقتصاد القومي .

لقد وضع ماكميلان برنامجه هذا عام ١٩٣٣ وكان يريد به وضع خطة خمسية لبريطانيا ، مثل الخطة الخمسية التي يضعها الاتحاد السوفييتي ويجدها كلما انتهت مدتها ، ولو انه لم يكن يقصد أن يسير التخطيط البريطاني وفق نظام التخطيط السوفييتي .

وعلى الرغم من اتهامه بالتطرف في ذلك الوقت ، فانه حينما واجهت بريطانيا أزمة مالية واقتصادية عنيفة عام ١٩٦١ وقف سلوين لوند ، وزير المالية حينذاك ، ليعلم أن بريطانيا يجب أن تسير على مبدأ التخطيط الاقتصادي ، وهنا واجهه المحافظون بالتهكم والسخرية من مبدأ التخطيط ، ولم يدروا أن زعيمهم ، هارولد ماكميلان ، كان ينادي بهذا المبدأ منذ ثلاثين عاما مضت .

ويقول توماس جونز ، وهو الذي ظل فترة طويلة سكرتيرا لمجلس الوزراء البريطاني ، في كتابه « يوميات ورسائل » انه قابل ماكميلان في فبراير ١٩٣٣ على أثر عودته من زيارة لموسكو ، وكان ماكميلان يتحدث كأستاذ في الاقتصاد ويعلم انه تأثر كثيرا بما شهدته في الاتحاد السوفييتي

وفي نوفمبر ١٩٣٤ في أثناء مناقشة خطاب العرش ،لقى ماكميلان خطابا طويلا ركز جهوده فيه على ايضاح مآيانيه سكان المناطق المنكوبة في جنوب انجلترا من بؤس ، ووجه سؤاله الى وزير المالية - نيفيل تشمبرلين حينذاك - ليبين لمجلس العموم مافعلته الحكومة لهؤلاء المنكوبين وما اتخذته من اجراءات لتخفيف حدة البطالة .

وتحدث ماكميلان عن انتقال المراكز الصناعية من شمال انجلترا الى جنوبها ، وعزا ذلك الى أن الاجور في الجنوب اقل مما هي عليه في الشمال ، واحوال العمال اسوأ ، ودعا الى دعم الحركة النقابية في الجنوب وهي خطوة لم تكن متوقعة من نائب محافظ .

وفي أثناء الخطاب عرض ماكميلان للحديث عن موقف الراى العام البريطاني من سياسة الدولة ، فقال ان فئة قليلة من أبناء الشعب ينتمون الى حزب المحافظين ، وفئة قليلة أخرى تنتمى الى حزب العمال ، وفئة ثالثة قليلة أيضا تنتمى الى حزب الاحرار ، ولكن جمهرة الشعب محرومة من الاشتراك في الحكومة وفي توجيه سياسة الدولة .

وعلى الرغم من ان خطاب ماكميلان قوبل بالاستحسان من صفوف العمال والاحرار فقد عارضه المحافظون واعتبروه تغيرا ثوريا سابقا لاوانه .

وفي عام ١٩٣٥ اصدرت دار ماكميلان كتابا عنوانه « السنوات الخمس القادمة » وهو يتضمن مناقشات وبحوثا تدور حول المشاكل التى تواجهها بريطانيا . وقد اشترك في البحوث كثير من الاحرار والعمال وعدد قليل جدا من المحافظين من بينهم هارولد ماكميلان الذى اشترك في لجنة الصياغة ، وتضمن الكتاب كثيرا من الآراء التى كان يدعو اليها .

وقد تضمن الكتاب عدة موضوعات عن « التنظيم الصناعى » و « الصناعات الاشتراكية » وقد عارضه المحافظون بشدة وعنف ، في حين رحب به الاشتراكيون .

المتر على الحزب

بعد الانتخابات العامة ، التى أجريت عام ١٩٣٥ ، أصبح ماكميلان من أعنف الناقدين لسياسة الحكومة الائتلافية ، التى كان يرأسها ستانلى بولدوين .

وبعد نشوب الحرب الابطالية العيشية صرح ماكميلان بأن عصبه الامم قد فُسلت في مهمتها ، ولكن هذا لايدعو بريطانيا الى التخلّى عنها ، لأن الشعب البريطانى ايد انشاء هذه الهيئة الدولية ولايزال يؤيد بقاءها .

وحينما تخلت الحكومة البريطانية عن مبدأ توقيع العقوبات على

إيطاليا عام ١٩٣٦ انضم ماكميلان الى النواب العمال في التصويت ضد الحكومة ، وكان هو العضو المحافظ الوحيد الذي عارض الحكومة .

ومنذ ذلك اليوم اعتبره مراقبو حزب المحافظين من المتمردين على الحزب ، وظل فترة يعمل بصفته عضوا محافظا مستقلا ، وكان يؤيد تشرشل في حملته ضد تشمبرلين ، وكان يصرح بأن من التفاف وصف اتفاقية ميونيخ بأنها « سلام عن طريق المفاوضات » .

وفي نوفمبر ١٩٣٨ انضم الى تشرشل في التصويت ضد الحكومة حينما رفضت انشاء وزارة للتموين استجابة لرغبة تشرشل .

وفي اكتوبر ١٩٣٨ أجريت انتخابات فرعية في اكسفورد ، وكان مرشح المحافظين فيها اللورد هيلشام ومعارضه اللورد لندساي ، وقد وقف ماكميلان يؤيد لندساي ضد هيلشام ، مرشح حزبه . وقد اعتبرت تصريحات ماكميلان من انه سوف يؤيد معارض الحكومة ، ومقام به من التأيد عملي لهذا المرشح ، كانها اعلان صريح لخروجه على حزب المحافظين الذي ينتمى اليه ، ولكن الحزب لم يتخذ ضده أى إجراء ، ولعله فضل المهادنة على إثارة المتاعب .

وكان بين ماكميلان وتشمبرلين ود مفقود ، وكان تشمبرلين يشر اليه في مذكراته بعبارات عنيفة مقتضبة ، ويعتبره في مجلس العموم المتحدث باسم جماعة « مشرى الشعب » الذين يطالبون ببرنامج بريطاني يشابه برنامج « النظام الجديد » الذي اعده روزفلت لتوسيع دائرة الخدمات الاجتماعية في الولايات المتحدة .

وعلى اية حال فان ماكميلان كان يعتبر عضويته في البرلمان وكالة من الشعب ، وكانت هذه الوكالة في نظره أهم بكثير من الولاء الحزبي .

الطريق الوسط

في عام ١٩٣٨ أخرج ماكميلان كتابا آخر تحت عنوان « الطريق الوسط » وكان هذا الكتاب تلخيصا لأرائه في المسائل الاجتماعية والاقتصادية ، وهي الآراء التي دعا اليها كثيرا في مجلس العموم . وكان من أهم ما وجه اليه عنابته حالة الفقر والبطالة التي سادت بريطانيا في ثلاثينات القرن الحالى وبخاصة انه قد قرأ كثيرا من مؤلفات كينز وبويد أور ، وزبيوم راوتنرى . والاتجاه الغالب على الآراء التي تضمنها كتاب « الطريق الوسط » هو البحث عن علاج للبطالة والفقر ، بشرط ألا يكون علاجا شيوعيا ولا فاشيا ولا اشتراكيا ولا رأسماليا ، بل طريقا وسطا بين مختلف الاتجاهات المتعارضة . وقد احتوى الكتاب على فقرات تجعل عضو البرلمان المحافظ في حيرة من أمر ماكميلان : هل هو راديكالى من اتباع لويده جورج ؟ أو انه من أنصار الاشتراكية الغابية ؟ وكان

الاشتراكيون على النقيض من ذلك ، اذ لم يروا فيما عرضه من آراء الا انه غارق في النزعة المحافظة من قمة رأسه الى أخمص قدمه . وهناك فقرات أخرى في كتابه وبخاصة تلك الفقرات المتعلقة بمسائل التعليم والدخل ، تشعرك بأنه نائر على الفوارق الطبقة ، وانه يطالب بالقضاء المدارس الخاصة بأبناء الطبقات المتميزة بنشأتها و ثرائها . كذلك كان يتجه في كتابه الى المطالبة بتخطيط صناعي كامل بدلا من التخطيط الجزئي .

وفي ختام كتابه كتب فصلا تحت عنوان «المشروعات العامة والخاصة» قرر فيه ان الاتجاه العام يسير نحو الادمج ، وأن التعاون سوف يحل محل المنافسة غير المقيدة . وتطور في تفكيره فدعا الى اعداد تنظيم شامل لتوزيع الاغذية الاساسية ، بحيث يلغى الوسطاء بين المنتج والمستهلك ، وتشرف هيئة قومية على توزيع اللبن وغيره من الاغذية الاساسية على الاسر الفقيرة سواء كان رب الأسرة عاملا أو عاطلا . وهو هنا يقول :

ان اللبن والزبد والمسلق الصناعي والجبن والبيض والحزب والدقيق والبطاطس والسكر ، سلع يجب أن ينظم توزيعها ، لأنها تدخل تحت باب « المنافع العامة » .

وعلى الرغم من تصريحات ماكميلان المتكررة بأن اراءه بعيدة عن الاشتراكية فان المحافظين لم يكن في وسعهم الا الاعتراف بأنه قد ذهب شوطا بعيدا في الطريق الاشتراكي ، بل ان كارل ماركس لو كان حيا لرحب بأراء ماكميلان في الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي .

وكل من قرأ « الطريق الوسط » الذي أخرجه ماكميلان عام ١٩٣٨ لايد أن يعتقد أن ماكميلان سوف ينتهي به المطاف الى أن يصبح رئيس وزراء اشتراكيا . ولم يكن ماكميلان من العاطفين على حزب العمال ، ولكن خطبه ومقالاته وكتبه جعلت الكثيرين من أولئك الذين يعيشون هذمستوى الكفاف يهرعون الى الاجتماعات التي يعقدها في دائرته الانتخابية ليروا ماذا هو فاعل لتخفيف بؤسهم .

ومن المؤكد ان ماكميلان لم يقبل ان يدين بالاشتراكية كفلسفة ومبدأ ولكنه لم يتخذ موقفا عنيفا ضد دعاة الاشتراكية ، مثل موقف « الاتحاد المعارض للاشتراكية » . ولقد خرج من دراساته الكثيرة بأن المجتمع الرأسمالي مجتمع ضعيف البناء ، كما أن القابلية يتورها كثير من النقص .

وقبل أن نختم هذا الفصل لا بد من الاعتراف بأن ماكميلان لم يكن قبل الحرب العالمية الثانية ، يخشى الاشتراكية ، ولكن بعد عام واحد جاءت الحرب وبقدومها انتهى ماكميلان من عهد التفكير المجرد والنظريات .

الحرب - وما بعدها

في أثناء الحرب الروسية الفنلندية ذهب ماكميلان إلى فنلندا، وبعد عودته إلى القى في مجلس العموم خطابا مستقيضا عما شاهده في رحلته . ووجه نقده إلى الحكومة لأنها لم تقدم إلى فنلندا قدرا كافيا من المعونة المادية . وكان قد أرسل ، في أثناء وجوده في هلسنكي بريقة إلى الحكومة البريطانية مطالبا بإرسال شحنة من البنادق ، ولكن حكومة بلاده تباطأت في اجابة طلبه ، وقد علق على ذلك قائلا : ان هزيمة الفنلنديين ترجع في الغالب إلى نقص الاسلحة ، ولا ندرى بالتحقيق ماذا كان يحتمل أن تكون النتيجة لو أن الحكومة البريطانية أرسلت حملة إلى هذه البلاد ، ولكن المهم أن حادثة فنلندا ألقت ضوءا قويا على مافي الحكومة البريطانية من ضعف وتردد وغموض في الاتجاه وجهل بالأهداف . وقد وجه نقده العنيف إلى تشمبرلين ، الذي ظل ملازما للصمت في أثناء اللقاء ماكميلان لخطابه ولكن ما أن انتهى ماكميلان من اللقاء خطابه حتى وقف تشمبرلين للرد عليه واتهمه بتقديم معلومات خاطئة للمجلس . ولما سقطت وزارة تشمبرلين وتولى تشرشل رئاسة الوزارة ، أعطى ماكميلان منصبا وزاريا بأن عينه سكرتيرا برلمانيا لوزارة التكوين ، وبعد عامين عينه وكيل لوزارة المستعمرات . وحينما نزلت قوات الحلفاء في الجزائر ، عين وزيرا بريطانيا مقيما في مركز قيادة الحلفاء في شمال افريقيا ، وذلك في أواخر عام ١٩٤٢ . وقد ظل ماكميلان يشغل هذا المنصب ثلاث سنوات كان في خلالها على صلة وثيقة بالجنرال ايزنهاور في أثناء حملة الحلفاء على ايطاليا .

وفي شمال افريقيا تعرف ماكميلان بديجول . وقد كتب ديجول في يومياته بتاريخ ١٧ مارس ١٩٤٣ يقول :

إن ماكميلان ثائر ، يطالب جميع الفرنسيين بالاتحاد تحت لواء الجنرال جيو ، وفي خلال إحدى نوبات ثورته صاح قائلا : اذا رفض الجنرال ديجول اليد الممتدة اليه ، فيجب عليه ان يعلم أن أمريكا وبريطانيا العظمى سوف تتخليان عنه وبذلك يصبح وكأنه لاشيء .

وقد شهد ماكميلان بعد ذلك توقيع الهدنة الإيطالية ورافق أعضاء مركز قيادة الحلفاء في شمال افريقيا حين سفرهم إلى إيطاليا ، وأصبح قائما بأعمال رئيس لجنة الحلفاء في إيطاليا . وفي أثناء الحرب الأهلية في اليونان أرسلته حكومته إلى هذه البلاد ليكون وسيطا بين الأحزاب اليونانية .

وفي عام ١٩٤٥ أجريت الانتخابات العامة في بريطانيا ، وهزم ماكميلان في دائرته الانتخابية أمام مرشح العمال ، ولكن حزب المحافظين بسط له كلتا يديه ، ومنذ ذلك الحين لم يعد في نظر حزبه « البرلماني الثائر » .

ولما تولت وزارة العمال الحكم ، رأى تشرشل أن ماكميلان خير من يقوم بتنظيم معارضة المحافظين ضد حكومة العمال ، ولذلك رشحه في

دائرة بروملي ، التي كانت مضمونة للمحافظين ، وتخلي عن دائرته القديمة « متوكتون » وما أن فاز ماكميلان بمقعده في البرلمان حتى جلس في الصفوف الامامية للمحافظين .

وفي أول خطاب له في المجلس الجديد أبدى دهشته من أن يرى زملاءه القدامى في مقاعد الوزراء ، فهناك أنيورين بيفان بجسائب آتلي ، وارنست بيفن بجائب شنويل . يالها من مفارقات أن تجلس الذئب بجانب الحملان !

وهنا يتنبأ ماكميلان بما سوف تتمخض عنه الايام فيقول انه يشك كثيرا فيما سوف تكون عليه النهاية .

لقد كان البرنامج الاساسي لحكومة العمال يدور حول تأميم الصناعات الرئيسية ، وهو ايضا كان قد نادى من قبل بأنه يتطلع الى اليوم الذي يرى فيه هذه الصناعات منافع عامة . ترى ، هل لا يزال ماكميلان متمسكا بمبادئه القديم الذي يرجع الى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية ؟ .

هذا أمر مستبعد . فماكميلان الآن ليس سيد نفسه ، لقد كان في الماضي يتخذ مقعده البرلماني في الصفوف الخلفية ليعبر عن رأيه في حرية وانطلاق ، ولكنه اليوم في المقاعد الامامية لحزب المحافظين ، واذن فعليه أن يقف من حكومة العمال موقف المعارضة بكل الوسائل الممكنة . ولقد أحس أعضاء مجلس العموم بما طرأ عليه من تغيير . فقد كان من قبل يقود حملة اصلاح لبناء مجتمع بريطاني جديد ، أما اليوم فقد انتهت حملته وتخلي عن المجاهدين ليعمل مع المرتزقة .

وحيثما عرض مشروع قانون تأميم صناعة الفحم على مجلس العموم للقراءة الثانية ، وقف ماكميلان ناطقا باسم المحافظين .

وفي اليوم التالي أخذ أصحاب مناجم الفحم وكبار رجال الأعمال ورجال بورصة الأوراق المالية يقرأون الصحف في لهفة ليعرفوا ما تم في أثناء الجلسة البرلمانية ، ولكنهم اطمأنوا الى مقاله ماكميلان ، وأدركوا ان حزب المحافظين لم يخذلهم .

وفي ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ تكلم ماكميلان باسم المحافظين في اثناء مناقشته مشروع تأميم النقل في اللجنة البرلمانية ، فايد المشروعات الفردية وعارضن التأميم !

هكذا أصبح ماكميلان المتحدث من المقاعد الامامية باسم المحافظين ، ولقد اتخذ أسلوبا خطيبيا يذكرنا بعهد جلاستون ، فهو يضع كلتا يديه على ثنية بسترته ، ويلتفت الى المقاعد الخلفية في انتظار الاستحسان والتأييد ويرفع صوته حتى ليتردد صده في ارجاء دار البرلمان ، ثم يهبط به وكأنه الهمس الخافت . وهكذا ينتقل من حركة تمثيلية الى اخرى بدقة وانتظام حتى ليخيل اليك أنه قضى الساعات الطوال ، في الليلة السابقة

واقفاً أمام الأزمة يستعرض ما سوف يقوم به من حركات تمثيلية في اليوم التالي ،

لقد بدأت المعارضة تشك في إخلاصه وفي أنه يعبر عما يعتقد ، أما الصحفيون البرلمانيون فقد أدركوا أنه يحاول تقليد تشرشل في شبابه .

نحو الحرب الباردة

كان ماكميلان يتغيب كثيراً من مجلس العموم في هذه السنين ، وبغالبا ما كان يقوم بزيارات للبلاد الأوروبية بسبب المحادثات الخاصة بالمجلس الأوروبي ، وقد ساعد تشرشل في تنظيم «حركة أوروبا المتحدة» كما أنه كان مندوبا بريطانيا في المؤتمر الأوروبي المنعقد في لاهاي بتاريخ مايو ١٩٤٨ . وقد ظل عضوا في المجلس المشترك لأوروبا المتحدة ورئيساً للجنة المركزية ولجنة شرق أوروبا . وفي عامي ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ وأوائل عام ١٩٥١ كان أحد مندوبي بريطانيا في الجمعية الاستثنائية للمجلس الأوروبي .

وظل يبدي اهتماما كبيرا بالاتجاهات والحركات الخاصة بمستقبل أوروبا ، والتي تبلورت في معاهدة روما وإنشاء السوق المشتركة .

وقد كان ماكميلان يبدي تشاؤمه من مستقبل أوروبا . وقد أبلغ مرة هيو والتون قائلاً : أعتقد أن أوروبا قد انتهى أمرها ، ولو كنت شابا لهاجرت من أوروبا إلى الولايات المتحدة .

وفي إحدى المناقشات ، التي جرت في مجلس العموم بتاريخ ٢٣ مارس ١٩٤٩ القى ماكميلان كلمة المعارضة باسم حزب المحافظين ، وكان يحذر بشدة مواصلة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي ، كما عارض في تقوية العلاقات التجارية مع دول أوروبا الشرقية . وكان يوجه خطابه إلى المجلس قائلاً : لا تحاولوا تعزيز علاقاتكم بدول أوروبا الشرقية ، إذ لفائدة ترجى من وراء ذلك . ولا تقدموا لهذه البلاد البنادق لتأخذوا الزيد بدلا منها . وإذا أردتم تبادلا تجاريا فابحثوا عنه في بلاد الدومينيون وفي بلاد الامبراطورية البريطانية . وفي المستعمرات وفي أوروبا الغربية ، وبالجمل في كل ما يقع غرب الستار الحديدي .

وحينما ضرب السوفييت حصارا حول برلين . واضطر الغرب إلى نقل الاغذية إلى برلين المحصورة عن طريق الجو لم يرخص ماكميلان عن هذه السياسة ، واعتبرها مظهرا للضعف ، وكان من رأيه اما استخدام القوة المسلحة ، واما المقاطعة الاقتصادية .

ونحن لا ندري علام كان يستند ماكميلان في دعواه حينما قال ان القوة المسلحة كانت خير اجراء يتخذ ضد روسيا ؟ وهل كان يعني مايقول؟ وهل لو كان وزيرا للخارجية لفعل ذلك وتحمل مسؤولية ماشرتب

على هذا الاجراء ؟ وهل كان يرى أنه لامانع من خوض غمار حرب من أجل برلين ؟ يبدو أن ماكميلان كان يجهل حقائق الموقف حينذاك ، كما أنه أخطأ تقدير موقف الاتحاد السوفيتي في أوروبا ، وهكذا كان اتهامه لحكومة العمال بالضعف عملا يدل على عدم تقدير المسئولية . لقد زار موسكو بعد ذلك بعشرة أعوام ، وشهد بنفسه كيف أن الغرب لم يتقدم الى الامام خطوة واحدة على الرغم من مرور فترة طويلة من الحرب الباردة ، حتى لقد اعترف أخيرا بأنه لابد من وضع حد لهذه الحرب .

وحينما القى تشرشل خطابه المشهور في فالتون بالولايات المتحدة ، ذلك الخطاب الذي اعتبره الاتحاد السوفيتي بداية الحرب الباردة ، رحب ماكميلان كثيرا بهذا الخطاب واعتبره عين الحكمة والصواب ، ولكنه حينما تولى رئاسة الوزارة بعد ذلك بعشر سنوات صرح بأن من الحكمة ، التريث والصبر والاحتمال ، وأنه يفضل أن يكون حكما بين أمريكا والاتحاد السوفيتي من أن يشترك في هذه الحرب الباردة . وأعرب عن أمله في أن تطرح للبحث السياسة التي رسمت خطوطها في فالتون ، وكذلك حلف الاطلنطي وسباق التسلح ، لأن هذه الاتجاهات سوف تؤدي بالعالم الى كارثة حرب عالمية ثالثة .

وإذا ما عرضنا لموقف ماكميلان من العلاقات بين بريطانيا وأوروبا نراه يحذر الارتباط مع أوروبا ، ولكنه يتحفظ قائلا : لا اعتقد أن في استطاعتنا أن نقوم بدورنا في أوروبا بصفتنا الشخصية فقط ، أي بصفتنا شعب وحكومة المملكة المتحدة . فنحن مركز الكومنولث والامبراطورية ، واذن فارتباطنا مع أوروبا يكون على أساس هذه العلاقات .

والنتيجة التي تؤخذ من آراء ماكميلان هذه ، هي أنه لو خير بين أوروبا والكومنولث لما تردد في اختيار الكومنولث .

وفي ١٤ فبراير سنة ١٩٥١ قاد هجوما شنته المعارضة على حكومة العمال بسبب سياستها الدفاعية ، وكانت حكومة العمال قد أعدت برنامجا واسعا للتسلح ، وقدم شنويل ، وزير الدفاع العمالي الى مجلس العموم تقديرات لميزانية الدفاع بلغت ١٥٠٠ مليون جنيه استرليني . موزعة على ثلاث سنوات .

وقد وقع الاختيار على ماكميلان ليتحدث باسم المعارضة في أثناء الرد على مشروع ميزانية الدفاع . ولم يعترض ماكميلان على تقديرات الميزانية التي قدمها الوزير العمالي ، ولكنه عاب على حكومة العمال معارضتها لمشروع تعزيز الدفاع المدني ، كما طالب باننتاج عدد كبير من القاذفات على أن يتم ذلك بعيدا عن منطقة الخطر ، وليكن في الولايات المتحدة أو في إحدى بلاد الكومنولث .

ويستخلص من خطاب ماكميلان أن المحافظين كانوا يريدون تعزيز القوات المسلحة الثلاث ، ولذلك فهم يطالبون بميزانية دفاع أضخم من تلك التي قدمها شنويل . والغريب أن برنامج الدفاع الضخم ، الذي أعده العمال ، بالإضافة الى الحرب الكورية ، انقلا كاهل الميزانية فارتفعت الأسعار الى حد كبير ، وتطور الموقف الى أزمة مالية حادة .

وعلى الرغم من موافقة المحافظين التامة على تعزيز الدفاع وعلى الاشتراك القوى فى الحرب الكورية ، فقد أخذوا حين حدثت الازمة ينددون بحكومة العمال ويقولون ان اسباب الازمة هى عدم كفاية هذه الحكومة وتخطيطها فى سياستها وتنفيذها لبرنامج التأمين وظل ماكميلان الى عدة سنوات فيما بعد ، كلما تحدثت عن حكومة العمال ، أعلن للسلطانهم هم الذين دفعوا بالبلاد الى هاوية الافلاس . ولما سقطت حكومة العمال وتولى تشرشل رئاسة الوزارة عين ماكميلان فى منصب وزير الصحة فى وزارته الجديدة .

برنامج الاسكان

حين كتب ايان ماكليود ترجمة لتفعيل تشمبرلين قارئ أعمال هارولد ماكميلان فى وزارة الصحة والحكم المحل بعد الحرب بأعمال نيفيل تشمبرلين فى هذه الوزارة فى فترة ما قبل الحرب ، ولكن كسائب الترجمة نسي أو تناسى حقيقة هامة وهى أن تشمبرلين ليس صاحب الفضل فى برنامج الاسكان ، اذ أن هذا البرنامج كان قد أعده من قبل جون هويلتى ، الوزير العمالى للصحة والاسكان فى وزارة العمال التى تولت الحكم عام ١٩٢٤ . واذا كان تشمبرلين قد وجد أمامه برنامج هويلتى معدا لتنفيذه فان ماكميلان وجد أمامه أيضا برنامجا للاسكان أعلنه حكومة العمال فى الفترة التى تولت فيها الحكم من ١٩٤٥ الى ١٩٥١ ، وان كان لماكميلان بعض الفضل فهو فى تنفيذ البرنامج لا فى اعداده .

ولما كان ماكميلان يعلم أن التنفيذ الكامل لبرنامج الاسكان سوف يكون تحديا لأصحاب المشروعات الفردية الكبرى والملاك وكبار المضاربين فى البورصة ، ولذلك لم يشأ أن يذهب فى تنفيذ مشروعه الى الحد الذى يعترض مصالح تلك الفئات التى كان حريصا على ارضائها ، ولذلك ففى التشريعات الخاصة بالاسكان أدخل كل المواد اللازمة لحماية مصالح هذه الفئات ، وعمل على ارضائهم بجميع الوسائل الممكنة ، وفى حين كان يلقى خطبا نارية فى السياسة الخارجية ضد المهادنة كانت سياسته الداخلية كلها استرضاء لطبقة أصحاب المصالح !

وهكذا تبين أن قانون الإيجارات ، الذى أعده ماكميلان وهو وزير للاسكان ، كان أكبر ترصية للملاك على حساب السكادحين من الطبقة العاملة .

ومن ناحية أخرى فان حملة الدعاية التى قام بها ماكميلان وأكد فيها للشعب البريطانى انه سوف يحل مشكلة الاسكان ، أصبحت مجرد وعود جوفاء ، ففى عام ١٩٥٥ وضعت الحكومة البريطانية خطة خمسية لازالة (العشش) ، وكان المشروع يقضى بازالة ٣٧٨ ألف عشة حتى عام ١٩٦٠ . وبعد أن مرت السنوات الخمس ظهر أن الخطة باءت بالفشل ففى

خين كان المقرر هو ازالة ٧٥ ألف عشة كل سنة لم تستطع الحكومة الأ
ازالة ٥٢ ألف (عشة) فقط ، أى ان العجز فى نهاية ١٩٦٠ كان ١٢٣
الف (عشة) .

واذا قارنا ما حققه مشروع الاسكان فى بريطانيا بمثيله فى كل من
فرنسا وهولنده والنرويج والسويد والمانيا الغربية فى الفترة من ١٩٥٨
الى ١٩٦٠ تبين لنا مايلى:

تقدمت مشروعات الاسكان فى فرنسا بمعدل ٢٠٦ مسكن لكل
الف من السكان ، وفى هولنده بمعدل ٢٢٩ فى كل الف ، وفى النرويج
بمعدل ٢٢٥ فى الالف ، وفى السويد بمعدل ٢٦٨ فى الالف وفى المانيا
الغربية بمعدل ٣٠٥ فى الالف ، أما فى بريطانيا فان تقدم مشروعات
الاسكان لم يزد على ١٦٨ مسكن لكل الف من السكان .

ومن هنا يتبين لنا مدى نجاح حملة الاسكان التى أعلنتها ماكميلان .
ولما استقال اللورد الكسندر من وزارة الدفاع ، وقع اختيار
تشرشل على ماكميلان ليخلفه فى هذه الوزارة .

ظل القنبلة

كانت أول جملة تضمنها الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكميلان الى
مجلس العموم فى مارس ١٩٥٥ ، بصفته وزيرا للدفاع ، هى الجملة
التالية :

ان ظهور القنبلة الهيدروجينية عام ١٩٥٤ قد غطى على كل ماعداه
من أحداث سابقة . وبظهورها تبرز أمامنا مشكلات جديدة من نوع ثورى
يتطلب حلها الشجاعة وسعة الأفق .

وكانت هذه الجملة أشد عبارات الكتاب الابيض اثارا للفرع
والتشاؤم ، بل هى أهم جملة خطها قلم ماكميلان .

وتلت هذه العبارة فقرة طويلة عن الاسلحة النووية وكيف نشأت
وتطورت ، ثم ما أجرته الولايات المتحدة من تجارب حرارية نووية ، وقال
ان أمريكا تعمل جاهدة لانتاج أكبر كمية من هذه الاسلحة النووية الخطيرة ،
وان الاتحاد السوفيتى يقتفى أثرها فى هذا الميدان .

وهنا استدرك قائلا : نحن لاندرى متى يستطيع الاتحاد السوفيتى
انتاج أسلحة حرارية نووية يمكن استخدامها فى العمليات الحربية .

وجاء فى الكتاب الابيض :

» ان المملكة المتحدة لديها القدرة على انتاج مثل هذا السلاح . وبعد

أن بحثت الحكومة كل الملبسات التي تحيط بهذا الموضوع رأيت من وأجبها
أن تبدأ بصنع هذه القنبلة الخطيرة وانتاج كميات منها .

من هنا يتضح ان حكومة ماكملان قد ألزمتنا باتباع استراتيجية
القنبلة الهيدروجينية ، ولقد أبلغنا الخبراء عن مدى القوة التدميرية لهذه
القنبلة الفائقة في قوتها ، وأدركنا أنها أضعاف أضعاف قوة القنبلة الذرية
التي أقيمت على ناجازاكي أو هيروشيما عام ١٩٤٥ ، وليست هناك حدود
علمية ولا فنية تحول دون انتاج أسلحة نووية أشد فتكا وتدميرا .

والى القارىء بعض ما قيل عن القوة التدميرية لهذه الاسلحة :

« اذا استخدمت هذه الاسلحة في الحرب فانها تسبب فناء الانسان
والمادة كلها على نطاق لا يتصوره العقل . واذا ما فجرت القنبلة
الهيدروجينية في الجو فان قوة التفجير والحرارة المنبعثة منه سوف تدمر
منطقة واسعة حولها . واذا فجرت على الارض فان التدمير وقوة التفجير قد
يكونان أقل من ذلك نسبيا ولكن هنا آثار خطيرة جدا غير مباشرة ، ذلك
ان الهواء سوف يمتص كميات كبيرة من جزيئات الذرة ، وبعد فترة تهبط
بعض هذه الجزيئات الذرية على المنطقة التي تم فيها التفجير ، ولكن جانبا
كبيرا منها سوف يحمله الهواء الى جهات أخرى ثم تهبط به على الارض على
صورة اشعاعات نووية .

وتركز الاشعاع النووي على منطقة ما ، سوف يعرض كل من
بالمنطقة ، ممن لا يلجأون الى المخابىء الذرية ، لموت محقق في كل المنطقة
التي يتركز فيها الاشعاع ، ويقل الخطر تدريجيا كلما ابتعدنا عن منطقة
التركز . ومن هنا يتبين أن بعض المناطق سوف يصيبها التدمير التام ،
وأن بعض المناطق الأخرى سوف تصبح غير صالحة للسكنى بصفة تامة .
أما وسائل المواصلات والخدمات الأساسية ، من ماء ونور وغيرها من
المرافق ، فسوف تتوقف حركتها توقفا تاما . والجهاز الحكومي ، سواء
كان مركزيا أو اقليميا ، سوف يصيبه الشلل الجزئي أو الكلي . أما
الانتاج الصناعي فسوف يصيبه تعطل كبير بسبب انقطاع الماء والكهرباء
والخامات والعمال . . الخ ، هذا على فرض أن المصانع قد بقيت على
حالتها ولم يصيبها التدمير .

يلي ذلك مشكلات كبرى خاصة بتنظيم المجتمع وتغذيته وإيوائه ،
وخاصة ان الروح المعنوية للشعب سوف تنهار انهيارا خطيرا . وهكذا
تصبح المعركة ، معركة من أجل البقاء تحت أسوأ الظروف .

وجاء في الكتاب الابيض ، الذى قدمه ماكملان لمجلس العموم ، أن
هذه الحقائق يجب أن تكون معروفة للجميع ، لا فى بريطانيا وحدها بل
فى العالم كله أيضا ليدرك الكل ما قد تؤدي اليه حرب نووية من أخطار
وأحوال .

تلك هى الحقائق المتعلقة بالقنبلة الهيدروجينية . ولم يقتصر الكتاب
الابيض على مجرد إثبات مافى استخدام القنبلة الهيدروجينية من هلاك

محقق ، ولكنه ربط بريطانيا بما أطلق عليه فيما بعد « سياسة الرادح النووي » .

ولقد ظل مجلس العموم يناقش الكتاب الابيض طوال يومين كاملين في جلسات تاريخية . وقد افتتح المناقشة ونستون تشرشل ، وكان خطابه من أطول الخطابات التي ألقاها في مجلس العموم وهو رئيس للوزارة البريطانية . وانتهت المناقشة بالخطاب الذي ألقاه ماكميلان بصفته وزير الدفاع .

وقد ازدحمت أهباء المجلس بالزائرين لسماع خطاب تشرشل ، فقد كان حينذاك لا يزال أعظم خطباء المدرسة القديمة في مجلس العموم . وما كان أحد ليجاره في هذا المضمار غير انيورين بيفان ، ولكنه كان في بعض النواحي أقل مستوى من تشرشل .

بدأ تشرشل خطابه بعرض عام لتطور العلوم النووية قائلا ان القنبلة الذرية ، مع ما فيها من أخطار جسيمة ، لا تنتقل بالخيال خارج دائرة الاحداث التي يمكن للعقل البشرى أن يسيطر عليها ، سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب . ولكن حينما قدم ستيرلنج كول ، رئيس لجنة الابحاث النووية في الكونجرس الامريكى ، أول بيان شامل عن القنبلة الهيدروجينية في ١٧ من فبراير ١٩٥٤ قلب الاسس التي قام عليها المجتمع الانساني رأسا على عقب ، وأحدث ثورة في شئون البشر . وجعلنا في موقف لا يدرك كنهه ولا نعرف مدى ما ينطوى عليه من فناء محقق للبشر .

وهنا أشار تشرشل الى صندوق الاقتراحات قائلا : ان كمية من مادة البلوتونيوم التفجيرية ، - وقد تكون أقل مما يملأ هذا الحيز الضيق الذي أشير اليه - كافية لمنح أى دولة كبرى سيطرة لا حد لها اذا امتلكتها وحدها . وليست هناك وسيلة دفاعية ضد هذه القنبلة الهيدروجينية ، كما أنه ليست هناك في الوقت الحاضر أية وسيلة أمام أى دولة لوقاية أراضيها من التدمير النووي .

وهنا تساءل تشرشل : ماذا يجب علينا أن نفعل ؟ وأى طريق نسلك لانقاذ حياتنا وحياة البشرية كلها ؟ أما العجائز فلا أهمية لهم في هذا الميدان فهم على أى حال ذاهبون قريبا الى مصيرهم المحتوم ، ولكن قلبى يفيض ألما حينما أتصور الشباب وما فيه من حيوية وحماسة ونشاط ، والاطفال وهم يقومون بالعابهم المرحية . وأقول لنفسى : ماذا يكون مصير هؤلاء لو أن الله تخلى عن البشر ؟ .

لقد ألقى تشرشل سؤاله الهام ، وهو : « ماذا يجب علينا أن نفعل ؟ » ولكننا انتظرنا عبثا في أثناء خطابه الطويل عله يبعث الطمأنينة الى قلوبنا باقتراح في جعلته لحل هذا الاشكال . فإذا انتقلنا الى الكتاب الابيض وما فيه من تقصيدات واحصاءات وأرقام عن السفن والمدافع والدبابات والقاذفات لم نجد ردا شافيا . والذي يستخلص من كل ما قاله تشرشل أن هذه الوسائل الدفاعية لم تعد لها أية أهمية أمام القنبلة الهيدروجينية .

وبالإضافة الى المبالغ الطائلة التي انفقناها على التسليح ، منذ أن بدأت حكومة العمال برنامج التسليح ، علينا الآن أن ننفق أموالا طائلة جديدة على القنبلة الهيدروجينية وملحقاتها مما تتطلبه الحرب النووية .

كانت حكومة العمال في كتابها الأبيض قد اقترحت اتفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرليني على الدفاع موزعة على ثلاث سنوات . وقيل لنا ان بريطانيا ، بعد تنفيذ هذا البرنامج ، تستطيع أن تجلس الى مائدة المفاوضات في مواجهة السوفييت وتتكلم من مركز القوة . ولكن لم تبد حتى اليوم أى دلالة على أننا أصبحنا أكثر قوة من السوفييت ، بل على النقيض من ذلك ، فكل الدلائل تشير الى أننا يجب أن ننفق مبالغ خيالية حتى نمنع السوفييت من اللحاق بنا . ولم يعد حديث الحكومة اليوم عن برنامج دفاعي يقتضى اتفاق ١٥٠٠ مليون جنيه استرليني على ثلاث سنوات ، ولكن يجب أن نستعد لانفاق مثل هذا المبلغ في ميزانية دفاعية واحدة فقط باعتباره الحد الأدنى لما يتطلبه الدفاع .

ولقد ذكر لنا تشرشل في خطابه إنه ليست هناك « وسيلة دفاعية مطلقة » أمام القنبلة الهيدروجينية . ولم تبد حتى اليوم أية إشارة الى أن السوفييت خروا سجدا أمامنا في ذلة متوسلين الينا أن نبدأ المفاوضات ، بل انهم على العكس أصبحوا أشد عنفا وصلابة من ذي قبل . ومعنى ذلك أن برنامجنا الدفاعي الجديد لم يرغبهم على السير البطيء في برنامج التسليح ، بل دفعهم الى مضاعفة الجهد في اعداد وسائلهم الدفاعية . وهكذا نستنتج من كلام تشرشل انه لم يبق أمامنا من وسيلة غير التسابق في التسليح ، وهذا ما نستنتجه من هذه العبارة التي وردت على لسان تشرشل في اثناء الخطاب وهي : « أود أن أكرر وأؤكد أن موضوع خطابي كله يدور حول عبارة واحدة وهي «الرادع النووي» ذلك ان القنبلة الهيدروجينية قد اقتحمت ، بشكل مذهل ، ميدانين وهما : حياتنا المادية وحياتنا الفكرية .

ومضى تشرشل يقول : ان باب الأمل أمامنا لا يزال مفتوحا ، ففي السنوات العشر القادمة سوف يصبح الرادع النووي من القوة على درجة يستطيع معها أن يسيطر على الموقف ، وهنا يبدأ في جنى ثماره . وقد يجيء اليوم الذي تسود فيه العدالة الانسانية وينتشر الاخاء الانساني ويرفرف فوق العالم لواء الحرية ، وتسير الاجيال القادمة بخطى ثابتة الى الامام . فلا تنكصوا على أعقابكم ولا تملوا ولا تستسلموا لليأس والقنوط .

هذا أسلوب شعري جميل ، ولكنه لن يفنى شيئا عن الحقيقة المفزعة ، ولا ينطوى على سياسة دفاعية ، وتشرشل نفسه قد أبلغنا في صراحة أنه لا حيلة لنا أمام القنبلة الهيدروجينية .

وبعد أن نزل تشرشل عن منبر الخطابة اعتلاه شنويل ، وزير الدفاع في وزارة العمال السابقة ، فوجه أسئلة محددة بددت ذلك الجو الشعري البديع الذي أشاعه خطاب تشرشل .

قال شنويل : لقد ذكر رئيس الوزارة اننا نستطيع الرد على هجوم

سوفييتى بهجوم مضاد على أراضيها الواسعة المكشوفة ، وتحدث تشرشل عن قدرة بريطانيا على مضاعفة الرادع النووى البريطانى ضد الانحسار . السوفييتى بحيث تصبح أراضيها الواسعة وسكانه المبعثرون هنا وهناك مكشوفة أمام الهجمات البريطانية ، بقلر ما ان جزيرتنا الصغيرة وأوروبا الغربية المزدحمة بالسكان مكشوفة أمام الهجوم السوفييتى أو بما يقرب من هذا القدر .

ولكن اذا هاجمنا السوفييت ورددنا بالهجوم على أراضيهم الواسعة فهناك هدف واحد مكشوف بدرجة تفوق كل هدف آخر ، ذلك هو لندن والموانئ البريطانية . فهل يتصور أحد أن فى استطاعتنا تحمل هجوم من هذا النوع ؟ وإذا أمكن ذلك فالى متى ؟ نيس أمامنا فى هذه الحالة الا الفوضى والاضطراب والفرار والهجرة على أوسع نطاق وهكذا تسود الفوضى كل شيء . حقا ، اننا نستطيع توجيه ضربة انتقامية ولكن العضو المحترم (تشرشل) يقول ان الهجوم النووى السوفييتى سوف يكون قد قضى على الملايين ، فهل يرضيك أن تموت لأن غيرك سوف يموت بعدك ؟ .

فقال تشرشل : ان الخسوف من الموت قد يمنع الاقدام عليه من الطرفين .

وقد كانت هذه وجهة نظر ماكملان فى السنوات التالية .

وقال شنويل : اذا كان العضو المحترم (تشرشل) يدعو الى اعداد رادع نووى لمنع الاتحاد السوفييتى من هجوم نووى أو للانتقام منه اذا شن على بريطانيا هجوما نوويا . فلماذا يتمسك تشرشل بنظامنا الدفاعى الحالى وما فيه من أسلحة برية وجوية وحربية ؟ ان هذه اذا كانت قد وفّت بأغراضنا فى الماضى فلا قيمة لها فى الموقف الجديد طبقا للوصف الذى قدمه لنا (تشرشل) .

وتحدث شنويل عن المبلغ الصغير المخصص للدفاع المدنى ، وهو ٧٠ مليون جنيه استرلينى ، قائلا : هل بهذا المبلغ نستطيع مواجهة ما يقتضيه الدفاع المدنى لحماية السكان ؟ واذا كانت الحكومة ترى أنه ليست هناك وسيلة للدفاع ضد القنبلة الهيدروجينية فلتصارع الشعب بذلك ، حتى يعرف الموقف على حقيقته . واعتقادت أن الحكومة لما أدركت انه ليست هناك وسيلة لحماية السكان لجأت الى الرادع النووى .

وتساءل شنويل : ما سياسة الحكومة الدفاعية ؟ .

ثم قال : لقد أشار الكتاب الابيض فى العام الماضى الى احتمال حدوث هجوم ذرى وما يتبع ذلك من «حرب كسيحة» ولا يمكننا اليوم ان نتحدث عن هذه الحرب الكسيحة بعد اكتشاف القنبلة الهيدروجينية التى سوف تهلك الناس باللايين وتدمر المدن والموانئ وتوقف حركة الشحن والتفريغ والنقل .

ولم تكن الاسئلة التى وجهها شنويل هى ما يدور فى رأسه وحده . بل كانت متواترة على السنة الجميع . واستنتج البريطانيون أن القنبلة الهيدروجينية ليست وسيلة دفاعية ولكنها « رادع نووى » واذا كان المبدأ

الآن هو « الردع » فكل ما ينفق على الجيش والاسطول والسلاح الجوي يدخل تحت باب الردع حتى وإن لم يكن نوويا .

وهكذا أصبحت كلمة « رادع » علما ، وصار البريطانيون يكتبونها بحرف كبير .

وأعقب شنويل انيورين بيفان : ولم يكن بيفان حينما ألقي خطابه ، في الصفوف الامامية للمعارضة ، ولكنه اتخذ مقعدا جانبيا ، لأنه كان في ذلك الوقت قد استقال من وزارة العمال « المرتقية » والمقصود بها تحديد الوزارات التي سوف يتولاها أشخاص معينون من أعضاء البرلمان الحزبيين حينما يتسولى حزبهم الوزارة . وبعد أن ألقي بيفان خطابه طرده حزب العمال من هيئته البرلمانية ، وكان على وشك أن يطرد من اللجنة التنفيذية لحزب العمال .

ولكن خطابه هذا كان من أحسن ما قيل عن القنبلة الهيدروجينية ، وكانت أسئلته موجهة الى أصحاب المقاعد الامامية من أعضاء حزب العمال في مجلس العموم .

بدأ بيفان بالإشارة الى خطاب تشرشل ، فقال ان بلاغته قد غطت على آرائه العادية التي لم تأت بجديد ، وهذا صحيح لأن تشرشل أسهب في وصف الآثار المدمرة للقنبلة الهيدروجينية دون أن يقترح العلاج الناجح ، وماسوف نفعله حيال هذا الخطر الداهم .

وقال بيفان : ان تشرشل وماكميلان وجها انتقادا مرا الى البرنامج الدفاعي الذي أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ فليبينوا لنا الآن ما همسم فاعلون . ومضى بيفان يقول ان البرنامج ، الذي أعدته وزارة العمال عام ١٩٥١ كان قد بنى على أساس افتراضات خاطئة ، وقد كانت هذه الافتراضات نتيجة لمشورة رؤساء القوات المسلحة في أمريكا وبريطانيا ، وتتلخص في أن السوفييت ، في مدى ثلاث سنوات ، سوف يملفون القمة في الاستعداد العسكري ، وان هذا قد يؤدي الى تفكيرهم في غزو أوروبا الغربية ، وعلى الغرب أن يعمل ما في وسعه لمواجهة مثل هذا الاحتمال . وبالاختصار : ان الخطر سوف يبلغ مداه في أواخر عام ١٩٥٣ .

وهانحن أولاء اليوم في عام ١٩٥٥ ، ومع ذلك فلم يحدث الخطر ، ونحن من جانبنا لم نفعل شيئا لدرئه .

لقد تكلم العضو المحترم (تشرشل) أمس قائلا ان مبدأ الردع كامن في ثايما القنبلة الهيدروجينية ، وأنه من المحتمل بدء المفاوضات عاجلا بين الشرق والغرب وان هذه المفاوضات قد تؤدي الى السلام طالما أن استخدام القنبلة الهيدروجينية سوف يكون عملا انتحاريا من كلا الطرفين . وإذا كان الأمر كذلك فما لنا صبرنا كل هسنة المدة حتى يلحق بنا الروس يصنعون قنبلتهم الهيدروجينية ؟

لقد أخبرنا تشرشل اننا يجب أن نتفاوض من مركز القوة ، وكلمنا ازدادت قوتنا ، مال الروس الى التفاهم والتراخي . وعاد تشرشل ليخبرنا

ان الروس لم يحصلوا بعد على القنبلة الهيدروجينية ولا على القاذفات التي تحملها وأن الغرب يحتكر هذا الميدان . وما دام الأمر كذلك فلدينا ميزة المفاوضة من مركز القوة . فلماذا لا نرسل مذكرات الى الكرملين نطلب منه أن يجتمع معنا للمفاوضات ؟

والغريب في الأمر أن هذه المذكرات بدلا من أن تصدر من لندن أو واشنطنون الى موسكو ، صدرت من موسكو الينا . ولقد أدرك رجل الشارع حقيقة موقفنا وهو أننا لسنا أهلا للتفاوض من مركز القوة .

واذا كان ما يقوله تشرشل حقا وهو رئيس الوزراء فلماذا لا يصير على عقد اجتماعات مع الزعماء السوفيت ؟ يبدو لي ان رئيس الوزراء يريد ذلك ولكن أمريكا تمنع من اتخاذ هذه الخطوة . وهذا - ان صح - أمر محزن حقا ، لأننا معرضون للفناء ومع ذلك فليس في مقدورنا أن نمد أيدينا الى العدو للتفاهم لسبب واحد فقط ، وهو اننا تحت رحمة أمريكا .

لقد كان بيفان في عبارته الاخيرة ينطق بالحقيقة التي لا شك فيها والتي أثبتت صحتها السنوات التالية ، فقد أصبحت بريطانيا فعلا «ذئبا» من اذئاب الولايات المتحدة، وأصبحت سياستها حيال الاتحاد السوفييتي تخضع لتوجيه من واشنطنون ووزارة الدفاع الامريكية .

قد تهلك بريطانيا هلاكاً تاماً نتيجة لقرار يتخذ في واشنطنون ، وهذه الحقائق كانت نتيجة حتمية للسياسة التي بدأتها وزارة العمال حينما وافقت على توقيع معاهدة شمال الاطلسي ، واستمرت هذه السياسة تحت حكومة تشرشل ، وظهرت بوضوح حينما أصبح ماكملان رئيساً للوزارة .

واخيراً وقف ماكملان ليلقي خطابه ، فتحدث عن أهوال الحرب وما جرى من مذابح في الحرب العالمية الاولى في وادي السدم وفي باشنديل ، حيث بلغت الاصابات ٣٦٠ ألفاً . أما في الحرب العالمية الثانية فكان المصاب أدهى وأمر ، ولم يقتصر أمره على المحاربين ولكنه أهلك الابرياء من المدنيين .

وقال ماكملان اذا كان مبدأ تحريم القنبلة الهيدروجينية يعني أننا نحارب بلا أسلحة نووية فأنا ضد هذا المبدأ ، لأن قواتنا التقليدية لا تستطيع مواجهة القوى البشرية الهائلة التي يملكها المعسكر الشرقي . واستنكر ماكملان الفكرة القائلة بأنه يمكن اجراء الحرب بالاسلحة التقليدية فقط ، وطالب بانتاج القنبلة الهيدروجينية ، وذلك لمواجهة القوى البشرية المتفوقة التي لدى المعسكر الآخر . وافترض ماكملان أن الغرب سوف يظل متفوقاً على الاتحاد السوفييتي في التسليح النووي ، ولكن الايام أثبتت خطأ تفكيره ، اذ على النقيض من ذلك ، أصبح التفوق النووي في جانب الاتحاد السوفييتي وليس في جانب بريطانيا .

ومضى ماكملان في خطابه فتحدث عن موضوع نزع السلاح فقال ان نزع السلاح يجب أن يقوم على مبدئين ، أولهما : أن يكون شاملاً ، وثانيهما أن يقتصر به نظام مناسب للإشراف والمراقبة . وفسر الشمول بأنه يضم جميع الاسلحة قديمها وحديثها ، من أسلحة تقليدية ونووية ، أما نظام

المراقبة فيقتضى وجود لجنة دولية عليا لديها سلطات حقيقية واسعة للقيام بمهمتها . وإذا قيل ان هذا من شأنه أن يرفع الامم المتحدة أو أى لجنة عليا أخرى مقترحة ، الى مستوى الحكومة العالمية ، فليكن ذلك فهو أخف الضررين ، ولسوف ينتهى المطاف بالبشرية الى هذا الوضع ، سواء كان ذلك عاجلا أو آجلا .

وكانت أضعف نقطة فى خطاب ماكميلان ، وفيما تضمنه كتابه الابيض عن برنامج الدفاع ، هي النقطة الخاصة بالدفاع المدني ، فقد أثبت فى الكتاب الابيض أن كل محاولة لتجنب أخطار القنبلة النووية لا فائدة منها . وقد حاول فى الخطاب أن يدافع عن وجهة نظره ، فقال ان اعتمادات الدفاع المدني لن تحول دون وقوع الكارثة ولكنها سوف تخفف من أثرها ، ثم مضى يغطى على ما فى هذه النقطة من ضعف بأسلوب أدبي رائع ولكنه بعيد كل البعد عن الاقتناع .

الضرب على وتر واحد مع مولوتوف

لما تولى ايدن رئاسة الوزارة فى ابريل ١٩٥٥ أخذ يبحث عن شخص ليخلفه فى وزارة الخارجية ، وقد وجد ضالته فى شخص اللورد سالسبورى ، إذ كان له من الخبرة والخلق القوى ما يستطيع به تحمل أعباء هذا المنصب الخطير ، ولكن اعترض تحقيق هذا الأمل أن سالسبورى كان عضوا فى مجلس اللوردات . وكان ايدن يرى أن وزير الخارجية لا بد أن يكون عضوا فى مجلس العموم . لذلك وقع اختيار ايدن على هارولد ماكميلان ، ليكون وزيرا للخارجية ، وبخاصة انه سبق أن اشتغل وزيرا بريطانيا فى شمال افريقيا فى أثناء الحرب ، وبذلك اكتسب خبرة دبلوماسية باحتكاكه بالأمريكيين والسوفييت والفرنسيين وهو يتكلم الفرنسية بطلاقة . وفوق ذلك فقد كان مظهره وتربيته فى ايتون واكسفورد والحرس الملكى كلها عوامل تجعل اختياره لائقا لوزارة الخارجية .

وقد تولى ماكميلان وزارة الخارجية ، وبريطانيا تمر بحادث دولى هام ، وهو توقيع معاهدة الصلح مع النمسا فى ١٥ من مايو ١٩٥٥ . وقد اجتمع لهذا الغرض ، فى فيينا ، وزراء خارجية بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والنمسا . وقد لاحظ ماكميلان أن أهالى النمسا استقبلوا توقيع المعاهدة بحماسة ظاهرة ، لأن بلادهم أصبحت محايدة ، شأنها فى ذلك شأن سويسرة والسويد ، ويفضل هذا الحيناد سوف لا يتورط النمسيون فى الانضمام الى حلف وارسو أو حلف الأطلسى .

وبعد توقيع المعاهدة ألقى مولوتوف ، وزير خارجية الاتحاد السوفييتى خطابا وجه فيه الثناء الى النمسا التى استطاعت أن تحقق

استقلالها وحريتها بعد كفاح دام عدة سنوات ، وأن المعاهدة تبدأ عهداً جديداً في العلاقات الدولية ، وأعرب عن أمل الاتحاد السوفيتي في أن يكون حل مشكلة النمسا بداية لحل كثير من المشاكل الدولية ، وأن تقتفي دول أخرى أثر النمسا حتى تزداد دول الحياد في وسط أوروبا .

وأعقبه ماكميلان فقال ان توقيعه للمعاهدة ، باسم ملكة بريطانيا ، شرف عظيم له ، وأعرب عن تقديره لجهود وزراء الخارجية البريطانيين الذين سبقوه بالاشتراك في المحادثات الخاصة بالمشكلة النمساوية ، وهم ارنست بيغن ، وموريسون ، وانطوني ايدن . وهنا بدأ يضرب على الوتر نفسه الذي سبقه اليه مولوتوف ، قائلاً ان هذه المعاهدة بداية عهد جديد في تاريخ النمسا .

وفي ٢٢ من يونيو ١٩٥٥ ذهب ماكميلان الى سان فرانسيسكو ، للاشتراك في الاحتفال بالعيد العاشر للأمم المتحدة . وهناك التقى خطاباً جاء فيه : مهما جاء به المستقبل من احداث فيجب أن تظل الامم المتحدة قائمة ، وقد ولدت بريطانيا العزم على أن تتخذ هذا الجهاز الدولي طريقاً للتعاون ، والمكان الوحيد الذي تعرض فيه المشكلات الدولية ويبحث لها عن حل .

وقد ظل ماكميلان يظهر حماسه للأمم المتحدة ما دامت اجراءاتها لاتعارض مع مصالحة بريطانيا ، فيقدر ما أشاد بذكر هذه الهيئة الدولية وما ساهمت به من أجل السلام العالمي ، بقدر ما استنكر موقفها وندد بها حينما عارضت العدوان البريطاني الفرنسي على قناة السويس .

وحينما عقد مؤتمر الاقطاب في جنيف في يوليو ١٩٥٥. سافر ماكميلان الى جنيف مع انطوني ايدن رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت ، وهناك أتيت الفرصة أمام ماكميلان للاجتماع مع مولوتوف ، وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ، وكذلك مع بولجانيين رئيس الوفد السوفيتي ، وخورشوف . وقد جرى في هذه الاجتماعات من الانسجام بين ايدن وماكيلان من جهة ، والوفد السوفيتي من جهة أخرى . ما أدى الى توجيه الدعوة الى بولجانيين وخورشوف لزيارة لندن .

أرباح الستة وأمنية عالم

في ٢٢ من ديسمبر ١٩٥٥ وقع الاختيار على ماكميلان ليتولى منصب وزير المالية . وكان أول ما فعله ماكميلان ، كوزير للمالية ، هو اتخاذ اجراءات جديدة لمواجهة النقص في ميزان المدفوعات البريطاني . كذلك وجد ماكميلان ان ميزانية الموظفين في ازدياد مطرد ، مع ان المحافظين حينما تقدموا لالناخبين ببرنامجهم الانتخابي ، كان من بين هذا البرنامج تخفيض ميزانية الخدمة المدنية . وقد أعلن ماكميلان ان من بين الاجراءات التي سوف تتخذ لتحقيق هذا التخفيض ، اجراء تخفيض في امالة الخبز قدرها ١/٧ بنس على ارفع ، وهذا يوفر للميزانية ١٨ مليون جنيه

استرليني في السنة . كذلك كان من بين الاجراءات رفع اسعار التجزئة للبن وهذا يوفر للميزانية ٢٠ مليون جنيه استرليني في السنة .

لقد ظل ماكميلان وزيرا للمالية لمدة تبلغ نحو سنة ، أعد في خلالها مشروع ميزانية واحدة ، وفي أثناء مناقشة مشروع الميزانية تحدث ماكميلان عن اقتراح جديد ، وهو عقد قرض داخلي جديد يقوم به ذوو الدخل الصغير ، ويسحب عليه يانصيب كل ثلاثة أشهر .

وفي اليوم التالي ظهرت الجرائد وعلى صفحاتها الاولى ، بالخط العريض ، العناوين الآتية : ميزانية ١٩٥٦ هي لأول مرة في التاريخ ، ميزانية أرباح السندات ، الحكومة تغطي عجز الميزانية باليانصيب .

وقد كان لميزانية ماكميلان وقع سيئ في المجلس ، ولم يقتنع الاعضاء بالدلة التي قدمها دفاعا عن هذه الميزانية . ولما لم يجد مخرجا من المأزق ، الذي أوقعته فيه ميزانيته ، وقف يوجه حملة تشنيع ضد حكومة العمال السابقة وخاصة ضد جيتسكل ، محاولا بذلك توجيه انظار المجلس عنه في فشله .

وقبل أن نختم هذا الفصل لابد أن نستجلى نقطة واحدة ، وهي ان الرأي العام كان يعلق آمالا كبيرة على أن ينجح ماكميلان في تخفيض اعباء المصروفات العامة ، وخاصة نفقات الدفاع . ولكن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ، انقضى خطابا في أثناء مادبة اقامها مكتب الصحافة الخارجية ، وقد صرح في خطابه هذا بأن أي تخفيض في الميزانية ، وخصوصا ميزانية الدفاع ليس الا خيال حالم .

ولعل ماكميلان كان في موقفه هذا ، يتذكر جيدا ما حدث لسابقه فقبله بخمسين عاما وقف اللورد راندولف تشرشل ، وزير المالية حينذاك ، معارضا ميزانية الدفاع ، واضطر تحت ضغط العاصمة التي هبت في وجهه من النواب ، أن يقدم استقالته .

كذلك كان من الاسباب التي أدت الى استقالة انيورين بيفان ، وهارولد ويلسون ، من حكومة العمال ، نفقات الدفاع .

ولكن ماكميلان كان حريصا على منصبه الوزاري ، فلا هو يريد أن يتخذ اجراء عاجلا مثلما اتخذ راندولف تشرشل ، ولا هو يريد أن يرغب على الاستقالة كما حدث لبيفان وويلسون .

مغامرة السويس

لما تولى انطوني ايدن رئاسة الوزارة البريطانية بعد ونستون تشرشل ، كان من النادر أن تجد بين الناس في ذلك الوقت من يتصور أن ايدن سوف يخلو منصبه بعد عامين وهو محطم مشوه الاسم يكاد يكون نسيا منسيا . ذلك أن ايدن كانت لديه كل المؤهلات التي تجعل منه رئيس وزراء محافظا من أنصف التقليدي المحبوب الذي الفته بريطانيا ، فهو خريج اكسفورد ، ومن ضباط الحرس الملكي السابقين ، وهو جميل الظلمة ذو خبرة طويلة بوزارة الخارجية وأعمالها ، سواء قبل الحرب أو في خلالها في وزارة تشرشل . وكان يتمتع بمركز ممتاز في نظر الحكومات الأجنبية . ولم يكن متطرفا في نزعته العدائية حيال الاتحاد السوفيتي ، وإذا فرض أن كان الطريق إلى تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي هو الوسائل الدبلوماسية العادية فقد كان ايدن خير سياسي يمثل بريطانيا في هذا السبيل . والواقع أن ايدن أظهر في الأشهر الثمانية عشر الأولى بشائر توحى بأنه سوف يكون رئيس وزارة ناجحا يتمتع بسمعة طيبة في مجلس العموم وبين أعضاء حزب المحافظين .

ولكن أزمة السويس نزلت عليه كما تنزل صاعقة من السماء ، حتى لقد أصبح في عزله وانزوائه يكره كلمة « السويس » وكل مايتصل بها من ذكريات .

إن ترجمته التي كتبها بنفسه لا تلقى الا ضوءا ضئيلا على العوامل التي حدثت به إلى اتخاذ قرار نهائي والإقدام على هذه المغامرة المهلكة ، التي أدى فشلها فيها إلى انهياره وسقوطه إلى الهاوية . لقد كنا نتخيل أن ايدن لديه من الفطنة والتفكير انتقدي ما يستطيع معه أن يدرك مقدما أن مثل هذه المغامرة لا تصلح للقرن العشرين . وكلما قرأنا عن الحوادث التي أدت إلى كارثة السويس ازددنا عجبا : كيف أمكن لوزارة بريطانية يتمثل في رجالها الذكاء ورجاحة العقل أن تتخذ قرارا بتحمل مسئولية التورط في شن هجوم عسكري على مصر ، بل يصبح عجبنا أشد من ذلك إذا فكرنا في الطريقة التي تم بها تنفيذ خطة الهجوم .

ولكن لننظر إلى الموضوع ، على اعتبار أنه حادث من حوادث الماضي . لقد كانت حادثة السويس مغامرة دولية يمتزج فيها الاجرام بالغباء وهي من الناحية اسياسية اجراء لا سبيل إلى تبريره أو الدفاع عنه ، وهي من الناحية العسكرية عرضة للنقد المدمر ، ومن الناحية المالية والاقتصادية حماقة وجنون مطبق .

حينما بدأت أزمة السويس كان هارولد ماكميلان وزيرا للمالية ، وأذن فهو الوزير البريطاني المسئول عن مالية الدولة . ولنتساءل الآن : أي كسب يرى وزير المالية أن بريطانيا سوف تجنيه من وراء الدخول في حرب مع مصر من أجل السويس ؟ .

إن المنطق السليم يوحي بأنه إذا كان هناك وزير بريطاني يرى من

واجبه الدعوة الى ضبط النفس والحرص والحزم وحسن التصرف في مثل هذا الموقف فهو وزير المالية . ولا ننسى ان ماكميلان كان قد اصدر كتابين عالج فيهما المسائل الاقتصادية ، وهو لم يكن بين المحافظين من الجناح اليميني الامبريالي مثل ايمري ، كما لم يكن في راي مجلس العموم من المتمسكين بمجد الامبراطورية الزائل ، مثل الكابتن ووترهاوس الذي كان من زعماء « فريق السويس » الذي لا يتحمل التبعة ولا يركن اليه .

الحق يقال انه لا يزال هناك ستار يخفي وراءه ما حدث في الوزارة البريطانية من تطورات أدت الى أزمة السويس ، وان ماكميلان لم يساعد في كشف هذا الستار برفضه تشكيل لجنة تحقيق « منتقاة » لمعرفة ما حدث .

ولكن ، أين كان ماكميلان وقت اعداد الخطة العسكرية لحملة السويس ؟ وهل قدم أي تحذيرات أو اعتراضات على مثل هذا الاجراء ؟ من المؤكد انه كان هناك فرع في بعض دوائر الوزارة ، ودليل ذلك الاستقالة الجريئة التي قدمها السير ادوارد بويل السكرتير البرلماني لهذه الوزارة .

لم يكن هذا الرجل معروفا في دوائر الحكومة البريطانية بالاندفاع وعدم الثروي ، وكان لا يزال شابا في بدء حياته السياسية ، ولهذه الاعتبارات لم يكن ليستقيل لولا ان راي في الأمر من الخطر مايدعو الى الاستقالة .

ومن المفيد هنا أن نذكر ما تلقاه ماكميلان من مشورة اهل الخبرة في وزارة الخزانة بشأن سياسة الحكومة البريطانية في مشكلة السويس .

المفهوم لدينا ان الحكومة كانت في ذلك الوقت متلهفة على اجراء بعض التخفيضات في المصروفات العامة ، وهذا ايضا ما طالب به ماكميلان في الخطاب الذي قدم به الميزانية الى مجلس العموم . ومادام الأمر كذلك فمن الغرابة بمكان الاقدام على غزو السويس الباهظ النفقات ، وخاصة أن الأمر يقتضي زيادة نفقات القوات المسلحة بأجمعها ، لأنه كان من المحتمل أن تؤدي هذه المغامرة الى اقحام بريطانيا في حرب مع دول أخرى .

حقيقة ان نصرا حاسما على « ناصر » قد يرفع من شأن الحكومة البريطانية ، ولكن على فرض أننا انتصرنا على « ناصر » فان معنى هذا إعادة احتلال منطقة القناة ، وقد يقترن بذلك احتلال قطاع كبير من مصر وفي هذا من الأعباء المالية مافيه . واذا فسواء انتصرنا على « ناصر » أو خسرنا المعركة ضده فسوف تتحمل الخزانة البريطانية عبئا ثقيلا في الحاليتين . . .

ويدعونا العجب ان نتساءل : ألم يفكر ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ومسئولا عن الشؤون المالية للامة ، فيما يحتمل أن تؤدي الى حرب السويس من عواقب ؟ ألم يكن من واجبه أن يحذر ايدين ووزارته من أن هذه المغامرة سوف تكون كارثة على بريطانيا ؟ لو أن ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية أشار ولو من طرف خفي ، الى أنه سوف يستقيل لوواصلت الحكومة البريطانية استعداداتها للهجوم المسلح على مصر ، لتوقف كل شيء .

ولكن ، اية مزايا اقتصادية يحتمل ان تحصل عليها بريطانيا من مهاجمة منطقة قناة السويس ؟ حقيقة ان جانباً كبيراً من البترول الذي نستهلكه يستورد من منطقة الشرق الاوسط عن طريق قناة السويس ، ومن هنا فان بعض مؤيدي ايدن في مقامته برروا تأييدهم هذا بأن احتلال منطقة القناة سوف يضمن بقاء القناة مفتوحة لتدفق البترول على بريطانيا واستمرار السفن البريطانية في عبور القناة . ولكن ، ألم تلق الحكومة البريطانية بنظرها الى الامام ؟ ألم تفكر في احتمال وقوع حوادث تخريب تؤدي الى اغراق بعض السفن في مجرى القناة ؟ وهل لم تدرك ان تدمير انابيب البترول سوف يكون ذا اثر قوى في وقف تدفق البترول ؟ .

لعل المسؤولين عن القوات المسلحة البريطانية كانوا يرون ان مفامرة السويس سوف تكون فرصة طيبة لاجراز نصر مؤزر ، وهؤلاء لهم العذر باعتبارهم رجالاً عسكريين ، ولكن ماعذر وزير المالية ؟ وهو يعلم علماً تاماً ان النصر والهزيمة كلاهما باعظ النفقات ، وخاصة بعد ما أصبح واضحاً ان امريكا تعارض التدخل العسكري وان الاتحاد السوفيتي يستعد لاتخاذ اجراء عسكري ؟

لقد كان اتخاذ القرارات المتعلقة بمعركة السويس تتخذ في دائرة خاصة داخل وزارة ايدن ، وكان ماكملان عضواً في هذه الدائرة الخاصة ، وبدلاً من ان يعارض الحملة على السويس كان من مؤيديها .

وليتذكر القارئ ماقلناه من قبل وهو ان ايدن حينما اختار ماكملان وزيرا للمالية طلب منه ان يعمل على اجراء تخفيض في المصروفات ، وحذره من كل ما يؤدي الى التضخم النقدي . و في شهر ابريل ارسل ايدن الى ماكملان مذكرة اعرب فيها عن قلقه بسبب الحالة الاقتصادية المضطربة وأوضح له فيها الحاجة الشديدة الى الاقتصاد . ولكن يبدو ان ايدن قد نسي كل شيء يتعلق بالموقف الاقتصادي في بريطانيا في تصميمه على اذلال « ناصر » ، ولكن لو ان وزير المالية كان أميناً حقاً على أداء وظيفته للذكر ايدن بأن موقف بريطانيا الاقتصادي لا يحتمل مفامرة في الخارج ، ان ماكملان ، بدلاً من ذلك أخذ يؤيد اجراءات ايدن في اثناء اجتماعات الدائرة الداخلية ، والشخص الوحيد الذي أشيع انه يعارض اتجاهات ايدن ، هو بتلر .

يخبرنا ايدن في مذكراته ان ماكملان أدلى بتصريح ، بعد زيارته لأمريكا جاء فيه مايلي :

« ان واشنطنون واثقة من أن ستة اشهر من الضغط الاقتصادي على ناصر كافية لتحقيق كل ما نطلبه بريطانيا » .

ويعاق ايدن على ذلك قائلاً :

« ولكني غير متفائل بما تقوله واشنطنون . وخاصة انه قد مضى نحو شهرين على تأميم القناة وهيئة المنتفعين لاتزال أبعد ما تكون عن ان تمارس أى ضغط على ناصر ، سواء كان اقتصادياً او غير اقتصادي » .

ويمضي ايدن في مذكراته قائلا : ان الوزارة بهيئتها الكاملة كانت تؤيده ، واستشهد على ذلك بأن أحد الوزراء البريطانيين ، في أثناء حديث له مع جون فوستر دالاس في السفارة الأمريكية بلندن ، قال ان بريطانيا سوف تمضي في خططها العسكرية ، حتى لو أدى ذلك الى ان ترهن مآلديها من تحف فنية في السوق الدولية .

ومما يؤسف له حقا أن السير انطوني ايدن قد جانب الصواب وكذب على التاريخ . فبأننا من بعدنا سوف يتساءلون : من هذا الوزير البريطاني الذي أبدى استعداداه لرهن التحف الفنية البريطانية للانفاق على مغامرة السويس ؟ .

لقد بعث المارشال بولجانين بمذكرة الى بريطانيا قال عنها ايدن انها صيغت في أسلوب « تهديدي » ولكن الولايات المتحدة من جانبها قدمت نصيححتها لبريطانيا .

وأصيب الجنيه الاسترليني بهزة عنيفة في السوق الدولية ٠٠ الم يقدر ماكميلان احتمال وقوع هذا الخطر بصفته وزيرا للمالية ؟ .

لقد قرر ايدن أن نفقات اعداد الحملة بلغت ١٢ مليون جنيه استرليني وأن الاحتفاظ بقوة الحملة على استعداد للطوارئ ، ابتداء من منتصف سبتمبر ، يكلف مليونين كل شهر ، والعملية العسكرية نفسها قدر لها نحو مائة مليون استرليني، وهذا يعادل ١/١٦ من الميزانية العامة لبرنامج الدفاع . وقال أيضا أن خزانة الدولة مقتنعة بأن هذه الأرقام لا تثقل كاهنها الا اذا تعطلت الملاحة في القناة وظلت أنابيب البترول بدون اصلاح .

وكان على ماكميلان ، بصفته وزيرا للمالية ، أن يدخل في اعتباره كل الاحتمالات الممكنة التي قد تتعرض لها الخزنة ، وكان عليه أن يبلغ ذلك لزملائه ، وكان عليه أن يبلغهم أيضا أن المضاربة على الاسترليني اشتدت في أمريكا .

ولكن ماكميلان لم يفعل ذلك الا بعد فترة طويلة . فقد أبلغ مجلس العموم أن الضغط على الاسترليني اشتد منذ بداية نوفمبر ، وأن الاحتياطي البريطاني من الدولار هبط بمقدار ٥٧ مليونا في سبتمبر و ٨٤ مليونا في أكتوبر ، و ٢٧٩ مليونا في نوفمبر ، وهذا الرقم يعادل ١٥٪ من احتياطي بريطانيا الكلي من الذهب والدولار .

وفي شهر نوفمبر ساد الذعر دوائر الخزنة البريطانية ، حتى لقد أبلغ المسئولون فيها ماكميلان ، يوم ٦ نوفمبر ، ان هبوط الاسترليني قد زاد للدرجة أنه أصبح يساوي ٢٨٧٨ من الدولار فحسب ، اما المدخول للاسترليني فقد بدأ يتسرب الخوف الى نفوسهم مما سوف تكون عليه حال العملة فيما بعد . وقد أخذت الدوائر المالية الأمريكية تمارس كل أنواع الضغط على الحكومة البريطانية ، واضطر ماكميلان الى أن يرسل برقية لواشنطن بتوسل اليها أن تمنح بريطانيا قرضا قدره ألف قدره مليون دولار ، وذلك لانقاذ الاسترليني ، وردت أمريكا في اليوم نفسه بأنها على استعداد لمنح القرض ، بشرط أن توافق بريطانيا على وقف إطلاق النار حتى منتصف

الليل • وكان في هذا الرد فصل الخطاب ، فقد أرغمت الوزارة البريطانية على قبوله ، وبذلك انتهت أزمة السويس •

لا بد أن رئاسة الوزارة البريطانية ، في ١٠ شارع راونتنج ستريت ، كانت مشهدا لحوادث مثيرة في هذه الايام • ولو أتيح لتاريخ حياة ماكميلان أن تعرض على شاشة التلفزيون ، كما هو الحال مع تشرشل ، إذن لمشاهدنا مناظر كثيرة لما كان يجري في أثناء أزمة السويس ، وأشد هذه المناظر إثارة صورة ماكميلان ممسكا بسماعة التليفون ، وهو يتوسل الى واشنطنون أن تمنحه القرض لاتقاذ الاسترليني •

لقد أنقذ الاسترليني من الانهيار ، ولكن هذا ما كان ليحدث لو أن وزير المالية اتخذ موقفا حازما ، وأوقف السياسة التي كانت على وشك أن تؤدي بالاسترليني الى الانهيار التام •

أما تكاليف حملة السويس فقد ترك تقديرها الى وزير مالية آخر ، ففي ٣ من فبراير ١٩٥٩ ، وجه النائب آرثر لويس سؤالاً الى أموري وزير المالية الجديد طالبا منه بيانا عن تكاليف حرب السويس ، على أن يدخل فيها ما فقدته بريطانيا من أسلحة وعتاد حربي في قاعدتها على القناة • كذلك طلب النائب بيانا عن الدخل ، الذي حصلت عليه بريطانيا في السنة السابقة لحرب السويس • نتيجة لحركة الصادرات والواردات بينها وبين مصر ، وما فقدته بريطانيا بسبب وقف الاتجار مع مصر •

ورد أموري قائلا : ان صافي ما أنفقته القوات المسلحة على الاجراءات الخاصة بالاستعداد لعمليات السويس قدر بنحو ٢٥ مليون جنيه استرليني ، وقدرت القاعدة البريطانية وما فيها من عتاد بنحو ٦٠ مليونا • وهذه تقديرات تفتقر الى كثير من الدقة ، كما تفتقر الى الوضوح •

ولما أصبح ماكميلان رئيسا للوزراء سألهم أحدهم أن يختار مؤرخا لتدوين تاريخ حرب السويس ، ولكن ماكميلان رد قائلا : لا •

وهنا سألته جون ستراتشي : نحن ندرك ادراكا تاما أن رئيس الوزراء ينفر من فكرة اختيار مؤرخ ليصدر تاريخا رسميا لحرب السويس ، فهل رئيس الوزراء على استعداد للموافقة على أن ما سوف يكتبه ذلك المؤرخ من حقائق هو أن الحكومة البريطانية اتخذت سياسة خاطئة ، أدت الى عمليات عسكرية خاطئة • • موجهة نحو أهداف خاطئة ؟ •

وهنا رد ماكميلان بأن نشر رسائل الجنرال «كيلى» فيه الكفاية •

كذلك رفض ماكميلان تشكيل لجنة مختصة للتحقيق في عملية السويس كلها • وهنا سألته انيورين بيقان : ما الذي يخشاه رئيس الوزراء من تشكيل هذه اللجنة ؟ هل يخاف من نشر شيء يتعلق بشخصه ؟

فرد ماكميلان قائلا : كلا ياسيدي • سافعل ذلك في الوقت المناسب (مقاطعة) - سوف نتاح الفرصة لعرض هذه الامور على الامة في فترة اقرب مما يتصوره الاعضاء المحترمون •

وسال الكولونيل كلدج : ان تشكيل لجنة تحقيق في العمليات

العسكرية. الفاشلة أمر جرى عليه العرف في بريطانيا . ومن أمثلة ذلك ماجرى في حملة الدردنيل ، وحملة العراق . ومن حق الرأي العام البريطاني أن يعرف ماذا كان حكامه لا يزالون يفخرون بما فعلوه في السويس .

لقد صرح رئيس الوزراء بأن الشعب سوف يكون حكما في هذا الموضوع . وهذا كلام لا عيب فيه ، ولكننا في بلد ديمقراطي ، وكيف يتاح للشعب إذن أن يحكم إذا لم تقدم اليه الحقائق ؟ أما إذا صدر تفسير الحقائق من جانب واحد فقط فهذا ليس عملا ديمقراطيا .

نحن أمام حكومة تفخر بما فعلته في السويس ، وتثق بأنها تركت في السويس صفحة بيضاء ناصعة . وإذا كان رئيس الوزراء ووزير خارجيته حقا على ثقة من ثبات مركزهما فعليهما اثبات ذلك . أما طريق الاثبات فهو أن يتقدموا الى لجنة تحقيق مختارة من بين أعضاء مجلس العموم وما داموا واثقين من أنفسهم فليس هناك ما يدعوهم الى الخوف من المثل أمام اللجنة إذ ان الوثائق السرية سوف تكون ، في هذه الحالة في جانبهم .

ووقف أنيورين بيفان : فقال ان المعارضة لا تبني مطالبتها بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية على أساس ما طلبته الصحافة ، ولكننا نفعل ذلك بعد الحقائق التي ظهرت فجأة في هذه الليلة .

فقد ألقى البريجادير « هيد » وزير الحرب السابق خطابا اتهم فيه زملاءه السابقين بأنهم تعدوا اعداد خطة كانوا يعلمون أنها عملية انتحارية ثم فروا قبل تنفيذها .

وقال « هيد » ان عملية السويس قد وضعت ، منذ البداية ، في مأزق . فمنذ يوم خروجنا من مصر أصبح أقرب مراكزنا القوية لشرق البحر الأبيض هو مالطة ، لا قبرص ، وذلك لأسباب مالية وهندسية . واتخاذ مالطة قاعدة أساسية وضع كثيرا من العراقيين في طريق الحملة .

وهنا سأل هيد أنيورين بيفان : ألم يكن ذلك معروفا لديكم من قبل ؟

ورد هيد قائلا : لقد كنا جميعا نعرف ذلك من غير شك ، وكان من واجب كل من تعرض لاعداد العمليات العسكرية أن يدركه أيضا . ومنع ذلك فمبلغ علمي أنه لم يحاول أحد اخفاء هذه الحقيقة .

فوقف جون ستراتشي ليقول : الا يعلم النائب المحتزم انه بالاسباب في الكلام عما سماه المازق العسكري يثبت أن الموقف كان من الخطورة على درجة لا بد أن تؤدي الى تلك الكارثة المفعفة التي انتهت اليها ، وانه بردوده يؤيد موقفنا ضد حماقة الحكومة تأييدا تاما ؟ وأخيرا فلا شك في أن ماكميلان يتحمل نصيبه في مسئولية كارثة السويس . ولكن مهما تكن العواقب العسكرية والاقتصادية والمالية لحرب السويس فإن نتيجتها السياسية هي استقالة إيدن من رئاسة الوزارة البريطانية .

وبعد استقالة إيدن في يناير ١٩٥٧ كان الاختيار بين ماكميلان

وبتلر . ولما كان بتلر قد ظهر بمظهر المعادى لمغامرة السويس ، أو على الأقل كان فاترا في تأييدها في حين كان ماكميلان من مؤيديها ، فقد فضل ذوو المقاعد الخلفية من الاعضاء المحافظين ، ماكميلان على بتلر ، وهكذا أصبح رئيسا للوزارة .

بتلر أو ماكميلان

قليل من الناس من كان يتصور عام ١٩٥٦ أن هارولد ماكميلان سوف يدعى الى قصر بكنجهام عام ١٩٥٧ ، ويكلف بتأليف الوزارة ، وقبل أزمة السويس قل بين رجال البرلمان من كان يرى ان ماكميلان سوف يصبح رئيس الوزراء التالي بعد ايدن . ولو أجرى رهان عمسا اذا كان ماكميلان أو بتلر اقرب الى تولى الرياسة لكانت النتيجة واحدا في صف ماكميلان مقابل عشرة في صف بتلر . ولقد كتب فرانسيس بويد ، مراسل صحيفة « الجارديان » الالمى ، قبل ذلك بيوم يقول : لا شك لدى في أنه لو خلا منصب الزعامة في حزب المحافظين في المستقبل القريب فلن يشغله الا بتلر .

والواقع ان هذا كان رأى أعضاء البرلمان المحافظين في ذلك الوقت حتى لقد أظهر الكثيرون منهم دهشتهم مع بقية رأى العمام حينما علموا ان الاختيار وقع على ماكميلان ليشغل منصب رئاسة الوزارة . فلم يكن ماكميلان زعيما المحافظين ، ولم يتم انتخابه بطريقة ديمقراطية سليمة ، أى ان هيئة المحافظين البرلمانية لم تقترح على اختياره للمنصب ولو أجرى مثل هذا الاقتراع ، كما هى العادة حين اختيار زعيم لحزب العمال ، فلا شك في أن بتلر كان هو الذى سيفوز بها .

هكذا تم اختيار ماكميلان لرئاسة الوزارة البريطانية من وراء ستار دون الرجوع الى الهيئة البرلمانية لحزب المحافظين .

لقد كان انهيار ايدن مفاجئا ، ولما حدث ، افترض الجميع ان خلفه هو بتلر ، ويبدو ان هذا هو ما كان بتلر نفسه يفترضه ، ففي اثناء غياب ايدن في الخارج كان يرأس اجتماعات الوزارة ، وهو ايضا زعيم المحافظين في مجلس العموم كما أنه وزير الداخلية .

ولنتساءل الآن : لماذا لم يدع بتلر الى قصر بكنجهام لتسند اليه رئاسة الوزارة ؟

بخبرنا السير تشارلس تيرى في كتابه « الملكية البريطانية الحديثة » ان الملكة لم تلق انة عقبة امامه في نقل الرياسة من ايدن الى ماكميلان فقد استشارت اللورد سالسبورى ، ووستون تشرشل ، وكذلك استشارت رئيس الوزارة السابق ايدن ، والمعروف انه كان يميل الى ماكميلان ، وبهذه الاستشارات تكون الملكة قد تمتعت مع التقاليد

الدستورية باختيارها الرجل الذى كان نه اكبر وزن فى نظر مؤيدى الحكومة ، وأذن فطريقها سليم لا مطمئن عليه .

ولا يخبرنا ايدن فى مذكراته عن اوصى به ، وعلى فرض انه اوصى بماكميلان فلماذا استشير سالسبورى وتشرشل فيما بعد ؟

ولكن اذا كانت الملكة قد استشارت سالسبورى ، بصفته رئيسا لمجلس اللوردات ، فلماذا لم تستشر رئيس مجلس العموم ؟

وحينما استقال ايدن كتب المعلق السياسى لجريدة « التايمس » فى عدد ١٠ يناير ١٩٥٧ يقول ان بتلر لديه كل المؤهلات التى تجعله اول مرشح لرياسة الوزارة ، ولكن يبدو ان الجناح الايمن لحزب المحافظين ، وهو جناح قوى ، لن يزكبه اذ أنه بفضل عليه هاروند ماكميلان .

وكتب المعلق السياسى لصحيفة « المانشستر جارديان » يقول ان هناك عنصرا قويا بين المحافظين فى مجلس العموم ، يوجه اللوم الى المستر بتلر لمعارضته لانطونى ايدن بسبب سياسته العسكرية فى ازمة السويس . ولكن لانسى ان مغامرة السويس كفتنا نفقات باهظة لم نكن نستطيع تحملها ، وادت الى تصدع فى العلاقات بين بريطانيا وامريكا واضرت بالعلاقات بيننا وبين بلاد الكومنولث . وعلى العموم فهناك عناصر قوية النفوذ فى حزب المحافظين تصمم على ابعاد بتلر عن رياسة الوزارة . وهذه العناصر هى التى اطلق عليها اسم « فريق السويس » ومعهم من يناصرهم من بقية المحافظين . وعلى الرغم من ان بتلر تلقى تأييدا حزيا كبيرا فانه يبدو ان معارضيهم من المحافظين على استعداد لاثارة التناوب اذا ما اصبح رئيسا للوزارة .

ومن ناحية اخرى ، اذا تم اختيار ماكميلان لرياسة الوزارة فان الجناح اليسارى من المحافظين ، وكذلك جماعة المعتدلين سوف لا يثيرون فى وجهه التناوب لان الوحدة الحزبية اهم لديهم من اى اعتبار آخر .

والذى نستخلصه من اقوال الصحف ، ومما يدور بين المحافظين فى اجتماعاتهم الخاصة . ان السبب الاساسى فى عدم اختيار بتلر لرياسة الوزارة هو موقفه المعارض لايدن فى ازمة السويس . فقد كتب اللورد لامبتون مقالا فى صحيفة « ايفنج ستاندارد » قال فيه : لاشك فى ان بتلر لم يبد اى ارتياح لخطة السويس فى جملتها وتفصيلها ، وانه اعرب عن رابه فى هذا الموضوع صراحة ولعله فى ذلك لم يلزم جانب الحكمة . حقيقة انه حينما بلغت الازمة غايتها لم يحاول بتلر ان يجمع الراى العام حول ايدن ، ولكن ما ان بدا ايدن العمل الجدى فى تنفيذ خطته حتى وجد بتلر بجانبه يسانده ويؤيده .

هذا هو التلخيص الحقيقى لموقف بتلر ، ولكن الفانبة العظمى من المحافظين كانوا ينظرون الى بتلر نظرة ريبة فى اثناء ازمة السويس وبذلك هبطت سمعته بينهم الى حد اصبح من المحال معه ترشيحه لرياسة الوزارة . انها كانت مؤامرة دينية على بتلر ، ولقد بعثت فى نفسى الاشمتزاز لدرجة اثنى فكرت فى اعتزال الحياة السياسية .

سيد القلم

لقد اثبتت الحوادث خطأ أولئك الذين ظنوا ، بعد معركة السويس ، ان حكومة المحافظين لن تهمر طويلا ، وأن ماكميلان سوف يخلي مكانه لنبتلر . فما ان تولى ماكميلان منصبه حتى أخذ يتجه بسياسته نحو مجلس العموم ويحاول التقارب من المعارضة .

لقد جاء بعد تشرشل وايدن ولكنه لم يكن شبيها لأحدهما . فلم تكن لديه تلك الجاذبية الشخصية التي كانت من خصائص ايدن ، ولكن معلوماته عما يجري في البلاد كانت أوسع بكثير من معلومات ايدن . والواقع ان ايدن لم يكن رئيس وزراء بالمعنى المفهوم من رؤساء الوزارة في بريطانيا ، وهو في الحقيقة لم يخرج عن أن يكون وزير خارجية خلع عليه كساء من المجد . بل قل أنه كان أصلياً للسلوك الدبلوماسي . ولو ان بريطانيا عينته سفيرا لها في الخارج نكانت قد أحسنت الاختيار .

أما تشرشل فهو شخصية فذة فريدة في نوعها . كان ذا قدرة فائقة على توجيه المناقشات البرلمانية ، وهو حاضر البديهة لاذع التندر ، فاذا وقف على منبر الخطابة فهو سيد الموقف .

أما صاحبنا ماكميلان فلم يمتلك رقة ايدن وطرفه ، ولا حيوية تشرشل ومرجه ، ولكن ادراكه للأمور واسع ، وهو لا يتحدث في أي أمر الا بعد دراسة عميقة . وقد اكتسب سمعة طيبة بين أعضاء البرلمان حينما علموا انه يؤيد زيادة رواتبهم . ولم يكتف ماكميلان بما حققه من نجاح ، بل ان إحدى دور الاعلان الكبرى في لندن تولت نشر الدعاية له استعدادا للانتخابات العامة القادمة .

أما متاعبه في الوزارة فقد بدأت بمشكلة قبرص ، فقد كان هناك خلاف بين الوزراء حول القرار الخاص باطلاق سراح الاستقف مكاربوس واعادته من منفاه في سيشل ، ليتولى المفاوضات مع الحكومة البريطانية بشأن مستقبل قبرص . . كانت قبرص قد أصبحت شوكة تقض مضجع بريطانيا ، فهناك النفقات الباهظة التي تثقل كاهل الخزنة البريطانية ، وهناك سوء التفاهم الذي سببته هذه المشكلة بين بريطانيا واليونان ، وهناك جماعة « أيوكا » وما تسببه من خسائر في الأرواح والأموال للقوات البريطانية في الجزيرة .

وما ان مضت ثلاثة أشهر على تولى ماكميلان منصب رئاسة الوزارة حتى استقال اللورد سالسبوري من رئاسة مجلس اللوردات ومن زعامة المحافظين في هذا المجلس ، احتجاجا على اقرار الذي اتخذته وزارة ماكميلان لاطلاق سراح مكاربوس . لقد كان القرار الذي اتخذته ماكميلان قرارا حكيما وعلى الرغم من ذلك فان معارضة سالسبوري له أوجدت لماكيلان في شخصه خصما عنيدا ، عاد بهاجمه مرة أخرى بشأن سياسته في جنوب افريقيا . وقد استطاع ماكميلان ان يتغلب على خصمه بشعبيته ، فعلى الرغم من نفوذ سالسبوري القوي في مجلس

اللوردات ، باعتباره ممثلا للعنصر الارستقراطي العتيق ، فلم يكن يحظى ، مثل ماكميلان ، بأى نفوذ بين الجماهير .

أما الخطر الحقيقي الذى واجه ماكميلان فقد جاء فى العام التالى ، فى يناير ١٩٥٨ استقال بيتر ثورنيكروفت ، وزير المالية ، ومعسه وزيران آخران هما اينوك باول ونيجل بيرش . ولكن ماكميلان استطاع ايضا أن يتخطى هذه العقبة ويكتسب ثقة المحافظين ، وخاصة أنه ، بعد فترة ، أعاد ثورنيكروفت وزيرا بلطيران وأعاد زميله اينوك باول وزيرا للصحة .

وفى الوقت الذى قدم فيه ثورنيكروفت استقالته قام ماكميلان برحلته المشهورة لزيارة بلاد الكومنولث ، فزار الهند وباكستان ونيوزيلنده وأستراليا . وكان يلتقى ترحيبا حارا كلما زار بلدا باقتراحه الذى يقضى بتوقيع ميثاق عدم اعتداء بين حلف الاطلنطى وحلف وارسو لتخفيف حدة الموقف الدولى ، وأعرب الجميع عن أملهم فى أن يخرج مثل هذا الاقتراح الى حيز العمل .

وفى أثناء رحلة ماكميلان الى بلاد الكومنولث جرت مناقشة فى مجلس العموم حول موضوع استقالة ثورنيكروفت ، ووقف ثورنيكروفت ليشرح وجهة نظره للمجلس فقال : ان رئيس الوزارة ، وقد كان وزيرا للمالية من قبل ، يعلم تمام العلم اننا فى أشد الحاجة الى الاقتصاد فى المصروفات ، ولكن الحكومة أخذت ، فى الفترة الاخيرة ، تتجه نحو تحقيق هدفين : أما الهدف الاول فهو أن نصبح دولة نووية نجسارى الدول النووية الكبرى ، وهى أمريكا والاتحاد السوفيتى ، فى القذائف الموجهة وفى القذائف المضادة وفى الاسلحة التقليدية ، وأن يكون لدينا ماكنفى من قوات الدفاع فى الشرق الاقصى وفى الشرق الاوسط وفى الاطلنطى .

فإذا انتقلنا الى الهدف الثانى نجد الحكومة تسعى الى اقامة مايسمى بدولة الرفاهية ، او حكومة الخدمات الاجتماعية ، وأنها تريد من وراء ذلك أن ترفع مستوى المعيشة فى بريطانيا الى مثل مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة بل أعلى منه . فكيف تريد الحكومة أن تحمل خزانة الدولة كل هذه الأعباء فى وقت واحد ، بل تسعى فى الوقت نفسه الى زيادة المصروفات فى باب الاجور والمرتبات الخاصة بالخدمة المدنية ؟ ان الحكومة تحاول انشاء دولة الحرب ودولة الرفاهية والسلام فى وقت واحد ، وهذا محال .

مضى ثورنيكروفت يقول : منذ اثنتى عشرة سنة ونحن ننقل من ازمة مالية الى أخرى ، فمرة تكون ازممتنا فى ميزان المدفوعات ، ومرة أخرى فى المحافظة على مركز الاسترلينى فى سوق النقد الدولية ، ولقد هبطت قدرة الاسترلينى الشرائية من عشرين نلنا الى اثنى عشر شلانه وليسست هذه صورة الامة التى تريد أن نعيشها ونقيم فيها الرخاء ، ولكنها صورة لامة تنكص على عقبيها وتراجع عن تحمل نصيبها من المسئولية . وأخيرا فليس هذا هو الطريق الى المجد ولكنه طريق الدمار .

ووقف ، بعد ثورنيكروفت هارولد وينسون ، ليتحدث باسم المعارضة ، فقال ان ماكميلان ، رئيس وزراء بريطانيا الذي يتحدث عن الخدمات الاجتماعية ، قرر يوم ٢٥ من اكتوبر ١٩٥٦ ، اى قبل غزو السويس بخمسة ايام ، اجراء تخفيض في معاشات المسنين وذوى الامراض المزمنة العاجزين عن الكسب ، وقد حصل من ذلك على وفر قدره خمسة ملايين جنيه استرليني فقط ، والنواب المخترمون ادرى بما أنفقه على مقامرة السويس .

ولم تكن المشكلة مقتصرة على تلك الدائرة الضيقة ، وهى زيادة المصروفات او تخفيضها ، بل كانت اعمق من ذلك بكثير ، فقد كانت سياسة ماكميلان الاقتصادية تتجه الى وضع اقتصاديات بريطانيا بين ايدى الاحتكارات الكبرى وكبار القاولين والمضاربين فى حى السبتي (حى المال ورجال الاعمال) وفى سوق الاوراق المالية .

ولكن ما اثر هذا كله على مركز ماكميلان ؟

لقد كان كل ما ذكر ضعيف الاثر ، فالمحافظون باغلبتهم البرلمانية وقفوا وراءه صفا واحدا لعلمهم ان الانتخابات العامة على الابواب ، وهم يريدونه ان يخوض بهم المعركة الانتخابية وان يخرجوا منها ظافرين .

استراتيجية الرابع النوى

كان اختيار ماكميلان لدنكان ساندز وزيرا للدفاع فى وزارته ذا اهمية خاصة بالنسبة لرئيس الوزراء ، فماكميلان كان يعلم علما جيدا ان ساندز هو الوزير الذى ينفذ بلا تردد اية سياسة تملى عليه او اى واجب يكف به . وقدر ماكميلان ان الموقف يحتاج الى شخصية سياسية خشنة عنيفة لتنفيذ البرنامج الدفاعى الذى كان يجول بذهنه

وبعد شهر من تولى ماكميلان للحكم قدمت المعارضة اقتراحا بلوم الوزارة . واعربت فى هذا الاقتراح عن اسفها لانه على الرغم من انه قد انفق على الدفاع منذ عام ١٩٥١ مايزيد على ٧٥٠٠ مليون جنيه استرليني فقد اكدت الحوادث الاخيرة ان هذه الاموال بددت فيما لا يعود على الدفاع البريطانى بفائدة حقيقية . وطالبت المعارضة باعداد برنامج دفاعى جديد يحقق درجة عالية من الكفاية ، ويؤدى فى الوقت نفسه الى تخفيض كبير فى نفقات الدفاع والى الفاء الخدمة الاجبارية

وحينما قدم جورج براون اقتراح المعارضة ذكر المجلس بالخطاب الذى كان ماكميلان قد القاه فى ١٦ مايو من العام السابق فى المادبة التى اقيمت فى نادى المراسلين الاجانب حينما كان وزيرا للمالية .

وكان ماكميلان قد تحدث فى خطابه هذا عن امكان اجراء تخفيضات كبيرة فى ميزانية الدفاع ، ودفعه الفلو الى تقديم تقديرات

رقمية تبعت على الاغراء ، وأشار جورج براون الى أن ماكميلان حين الحديث عن التخفيضات ذكر الرقم ٧٠٠ مليون جنيه استرليني مالا يقل عن خمس مرات أو ست وليس لذلك من تفسير إلا أن وزير المالية حينذاك (يقصد ماكميلان) كان يريد الشعب البريطانى على أن يفهم أن السبعمئة مليون هو رقم التخفيض المحتمل .

وهنا وقف ماكميلان للرد على جورج براون فقال « ان العضو المحترم قد خلق أسطورة من خطايبى السابق . فما كنت أقصده في نادى المراسلين الاجانب هو أن بريطانيا كانت تتحمل عبئا دفاعيا ثقيلا بثقل كاهل اقتصادها ، وأن نصيب بريطانيا من نفقات التسلح الغربى يزيد كثيرا على نفقات كثير من شركائها في حلف الدفاع الغربى ، ولكن استطاعتها تحمل هذا العبء الفادح دليل على ثبات مركزها الاقتصادى واذن فالعضو المحترم أساء تفسير خطايبى ، وقد فعل ذلك عن قصد »

ونحن لا نرى في رد ماكميلان مايقنع ، فمن المؤكد انه ذكر رقم « ٧٠٠ مليون » كأساس للتخفيض ، في نادى المراسلين الاجانب ، وهذا ليس بالمكان الذى يجوز فيه لوزير المالية البريطانية أن يعث بالعبارات وخاصة أنه يتحدث عن ميزانية بلاده .

ولندع هذا جانبا ثم لنسال : ماذا كانت تقديراته للتخفيضات الممكنة في ميزانية الدفاع ؟ وماذا كانت خطته لاجراء هذه التخفيضات ؟

لقد رد دكتور ساندز على هذا باسم الحكومة « وقدم بيانات تضمنها فيما بعد كتاب أبيض عن هذا الموضوع .

اعترف ساندز في بيانه بأن بريطانيا قد باغت نقطة تحول في وسائلها الدفاعية ، وأنه لابد من اتخاذ قرارات حاسمة كبرى في هذا الشأن ..

ومضى ساندز يقول ان المسؤولية الاساسية التى تضطلع بها الحكومة هي حماية ارواح الشعب والدفاع عن استقلال البلاد ، ولكن الحكومة البريطانية في قيامها بتحمل هذه المسؤولية الكبرى تواجه تقدما هائلا في تطوير الاسلحة ذات التدمير الشامل .

وهنا أشار ساندز الى خطأ الفكرة القائلة بأن ميزانية الدفاع يمكن تخفيضها الى النصف في يوم وليلة ، وأن دافع الضرائب البريطانى سوف يعنى من عدة شلنات من الضريبة في بضعة أسابيع ، فهذا في نظره من باب التمنيات . والمهم ان التخفيض سوف يتم يوما ما .

وفي شهر ابريل قدم ساندز لمجلس العموم ماسمى حينذاك بالكتاب الابيض التاريخى ، وكان هذا يتضمن تفصيلات عن القرارات الكبرى التى اتخذتها الحكومة والتى سبق أن وصفها بأنها « نقطة التحول » .

وقد جاء في الفقرة الاولى من الكتاب الابيض أن الوقت قد حان لاعادة النظر في انهيكال العام لبرنامج الدفاع ، لا أن يقتصر الامر على

حجمه فقط ، فالخطر الشيوعي باق ولكن طبيعته تغيرت وأصبح من الواضح من الناحيتين العسكرية والاقتصادية انه من الضروري إعادة النظر في المشكلة والبحث عن حل جديد لها .

وأكد ساندبر ان نفوذ بريطانيا في العالم يتوقف أولا وقبل كل شيء على سلامة اقتصادها ومدى نجاحها في تجارة الصادر ، فبدون هذين العنصرين لن تستطيع بريطانيا امداد مايلزمها من وسائل دفاعية . ومن هنا يتبين ان من مصلحة الدفاع ان تيسر النفقات العسكرية جنباً الى جنب مع الحاجة الى الاحتفاظ بسلامة مالية البلاد واقتصادها .

ولقد كانت ميزانية الدفاع في السنوات الخمس الماضية تمتص ١٠٪ من اجمالي الدخل القومي في بريطانيا وأن نحو ٧٪ من الطبقة العاملة البريطانية يعملون اما في القوات المسلحة واما في نواح لها ارتباط بهذه القوات ، وأن ١٢١/٣٪ من انتاج الصناعات المعدنية التي تعتمد عليها تجارة الصادر في بريطانيا تخصص للدفاع ، وهناك بجانب ذلك عدد أكثر مما ينبغي من اعضاء المتنازير والمهندسين يعملون في خدمة الدفاع ، وأخيراً فان احتفاظ بريطانيا بقوات كبيرة في الخارج يرهق ميزانيتها ويؤثر تأثيراً سيئاً على ميزان المدفوعات .

ومن هنا يتبين لنا ان الكتاب الابيض كان ذا دلالة كبرى ، اذ تعرض للذكر عامل من العوامل الاساسية في المصاعب الاقتصادية التي تواجهها بريطانيا ، كما تضمن استنكار السياسة الدفاعية التي اتبعتها كل حكومة بريطانية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وخاصة الحكومات التي تولت منذ عام ١٩٥١ . كذلك كان الكتاب الابيض يتضمن ادانة اوزراء المسؤولين عن اعداد ميزانية الدفاع في هذه الفترة ، ولقد كان ماكملان وزيراً في ثلاث وزارات رئيسية في السنوات السابقة وهي الدفاع والخارجية والمالية ، ومن هنا تثبت ادائته . فهو الذي دعا الى الموافقة على ميزانية الدفاع حينما ألقي خطابه ، بصفته وزيراً للدفاع ، عام ١٩٥٥ ، وهو الذي اعتمد هذه الميزانية عام ١٩٥٦ . بصفته وزيراً للمالية ، وبجانب ذلك فهو مسئول عن السياسة الخارجية التي رسمت الخطوط اعريضة لهذه السياسة الدفاعية حينما كان وزيراً للخارجية .

وتعرض الكتاب الابيض للحديث عن الوداع النووي ، فقال ان من دواعي الصراحة الاعتراف بأنه لا توجد في الوقت الحاضر وسيلة كافية لحماية الشعب البريطاني من عواقب هجوم بالاسلحة النووية . وعلى الرغم من ان مقاتلاتنا تستطيع ، في مثل هذه الحالة ، ان تنزل بقاذفات العدو خسائر فادحة ، فلا بد من ان تتسرب بعض هذه القاذفات الى المجال الجوي البريطاني ، وتعمل عملها التدميري ، وعلى فرض ان هذه القاذفات كانت « دسنة » واحدة فقط فهي تستطيع ، بما تحمله من قنابل تبلغ قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، ان تحدث قدراً هائلاً من التدمير . والعالم الحر الآن يعتمد اساساً ، في حمايته ، على ما تملكه الولايات المتحدة من قوة نووية .

وعلى الرغم من أن بريطانيا لا تستطيع أن تساهم في هذا المضمار إلا في حدود متواضعة ، فهناك نسبة كبيرة من الموافقة على أن بريطانيا يجب أن تمتك قدرا كافيا من الرادع النووي على أن يكون ملكا خاصا لها . ونحن الآن ننتج القنابل الذرية ، ولدى القوات الجوية البريطانية مقدار كبير منها ، كذلك نحن بسبيل إنتاج القنبلة الهيدروجينية التي تبلغ قوتها ملايين الاطنان ، وبعد قليل سوف نجرى تجاربنا عليها ثم نبدأ في انتاجها وتخزينها .

ووردت فقرة في الكتاب الابيض عنوانها : « اندفاع عن الرادع النووي » .

وجاء في هذه الفقرة ان الدفاع عن قواعد القاذفات البريطانية أصبح له المقام الاول قبل اعداد الدفاع المدني .

وقد ظل مجلس العموم يومين في مناقشة سياسة الدفاع ، التي تضمنها الكتاب الابيض ، ويستخلص من خطاب ساندز - باعتباره وزير الدفاع ، ان هذه السياسة تركز على قاعدتين : الاولى انه من المحال الدفاع عن البلاد ضد هجوم بالقنابل الهيدروجينية ، والاخرى ان بريطانيا - سواء رضيت أو لم ترض - لا تستطيع ان تواصل تخصيص جانب كبير من مواردها ، وخاصة مواردها في القوى البشرية ، لشؤون الدفاع .

كذلك تبين من خطابه ومن خطاب ماكميلان ان التركيز على انتاج الاسلحة النووية يقتضى تخفيض الانفاق على الجيش والبحرية ، وأن التجنيد الاجباري يجب أن يوقف . وقال ساندز انه سوف يتم تسريح ٣٠٠ ألف جندي ، وعدد كبير غيرهم من المدنيين الذين يعماون في خدمة القوات المسلحة وخاصة منهم العلماء ، وهذا سوف يوفر للدافع الضرائب قدرا كبيرا من المال .

وقد تعرضت هذه السياسة ، التي شرحها ساندز ، للنقد الشديد من جهات متعددة، فبعضهم رأى استبعاد القنبلة الهيدروجينية من برنامج اندفاع البريطاني استبعادا نهائيا ، والبعض الآخر رأى عدم تخفيض الاسلحة التقليدية بل مضاعفة الانفاق عليها مع تخفيض ماينفق على الاسلحة النووية .

وقف ماكميلان ليلقي خطابه ، فأيد ماجمء في الكتاب الابيض بشأن سياسة الدفاع قائلا انها سياسة تتسم ببعد النظر كما انها انشائية . وأكد ماكميلان ان الموضوع كله يدور حول ما اذا كانت بريطانيا تتخذ قرارا بشأن استخدام الاسلحة النووية او رفضها وقال ان تخفيض الاسلحة التقليدية مستحيل اذا لم تستعد بريطانيا بالرادع النووي ، لا بل انها اذا اعتمدت اعتمادا كاملا على الاسلحة التقليدية فلا بد من اعداد قوات جديدة كبيرة ، وفي هذه الحالة فلا أمل للحكومة في الحصول على المدد الكافي من المجندين ، على قاعدة التجنيد الاختياري ، أى ان فكرة إلغاء التجنيد الاجباري تلقى ظهريا .

وخلاصة خطاب ماكميلان ان انهاء التجنيد الاجبارى وتخفيض القوات المسلحة التقليدية لا يتحققان الا بانشاء قوة نووية رادعة .

وقد تقدمت المعارضة العمالية بتعديل يقتضى البدء بالعمل فوراً فى اعداد مقترحات انشائية لالغاء التجارب الهيدروجينية ، ورد ماكميلان على ذلك مفاطاً ، فقال ان « تأجيل » التجارب الهيدروجينية معناه انها لن تظهر مرة أخرى الى عالم الوجود .

غير ان هيو جيتسكيل وقف على الفور ليبين لمجلس العموم ان رئيس الوزراء يفسر التعديل العمالى تفسيراً خاطئاً ، وان وجهة نظر حزب العمال الصريحة هى الغاء التجارب الهيدروجينية الغاء نهائياً وليس تأجيلها ، على أن يكون مفهوماً انه فى الفترة التى تجرى فيها المفاوضات لالغاء هذه التجارب نهائياً ، توقف بريطانيا تجاربها مؤقتاً ، فاذا لم يتم الاتفاق الدولى على الغاء التجارب ، فليس هناك ما يحول دون استئناف بريطانيا لتجاربها .

وهنا أبدى ماكميلان تصميمه على عدم وقف التجارب الهيدروجينية قائلاً : انه الى أن يتحقق نزع سلاح شامل يضم الاسلحة النووية والتقليدية ، فلا بد لبريطانيا من الاعتماد على الرادع النووى ، والا فانه ليس امامها من سبيل غير الاستسلام للخصم .

ومضى ماكميلان يقول : ليس هنالك طريق وسط بين الرادع النووى والاستسلام ، واعتقد ان كثيراً من المواطنين يوافقونى على أن قبول الرادع النووى خير من تعريض حريتنا الدينية والمدنية للخطر .

وكانت هذه هى العبارة ، التى يتخذها ماكميلان فى دفاعه فى كل مناسبة وفى كل مازق . وأصبحت أساساً لسياسته الخارجية والدفاعية حينما أصبح رئيساً للوزراء ، انها سياسة تؤدى الى الفناء ، ولا ندرى مدى مأسوف يكون لها من اثر مهلك لبريطانيا فى المستقبل .

لقد اعترف ماكميلان فى اثناء خطابه بانه حدث انهيار خطير فى العلاقات بين بريطانيا وأمريكا بعد مغامرة السويس ، وانه بعد أن تولى رئاسة الوزارة البريطانية تلقى دعوة من ايزنهاور لزيارة أمريكا وعقداً معاً عدة اجتماعات فى برمودا فى الفترة من ٢١ الى ٢٤ مارس ١٩٥٧ . وصدر بيان مشترك يقول ان ماكميلان وايزنهاور راضيان عن النتائج التى أسفرت عنها اجتماعات برمودا .

وقد أجرى مجلس العموم مناقشة حامية حول موضوع اجتماعات برمودا ، قال ماكميلان فى اثنائها ان اجتماعات برمودا لم تكن « للبكاء على اللبن المسكوب » اما من الذى سكب اللبن فهذا مالم يتعرض له ماكميلان . كذلك تجنب الخوض فى أى حديث عما قرره ايمرى بشأن السبب الذى حدا بالسلاح البحرى الأمريكى لتوجيه تهديد الى بريطانيا وقت مغامرة السويس ، وكذلك بشأن السبب الذى حدا بالحكومة الأمريكية لاتخاذ قرارات مالية حاسمة مقترنة بدعوة بريطانيا الى وقف مغامراتها فى السويس .

لقد أعلن ماكميلان أن المحادثات دارت في برمودا حول ما سوف يتبع في المستقبل ، وكان اهتمام ايزنهاور موجهاً الى نقطة واحدة، وهي ما الذي يحتمل أن يحدث في بريطانيا باعتبارها القاعدة الرئيسية للقاذفات الأمريكية في أوروبا ؟

ولقد قدم له ماكميلان في هذه النقطة تأكيدات بعثت الاطمئنان الكامل الى نفسه ، ذلك أن الرأي الذي يسود الحكومة البريطانية هو أن بريطانيا كلها سوف تستظل « بالظلّة » الأمريكية ، حتى لو أدى بها ذلك الى الهلاك . كذلك اتفق ايزنهاور و ماكميلان على الحاجة الى التجارب الهيدروجينية والاستراتيجية النووية . وأكد ماكميلان للنواب أن بريطانيا سوف تواصل تجاربها على جزيرة كريسماش في الباسفيكي ، وأن ما أبدته اليابان من مخاوف خاصة بوصول الاشعاع الذري اليها لا مبرر له ، لأن اليابان تبعد ٤٠٠٠ ميل عن مركز التفجير

ولقد أبدت أمريكا استعدادها لتزويد بريطانيا بالقذائف الموجهة على أن تظل الرعوس الذرية تحت إشراف أمريكي .

هذا وقد أكد ناقداو ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، أنه كان في لهفة على استرضاء أمريكا بعد مغامرة السويس ، حتى أنه وافق على الخطة السياسية التي وضعتها أمريكا دون أدنى معارضة . وقد علق ريجنالد باجيت ، على موقف ماكميلان قائلاً : أنه اذلال لم تقبله دولة كبرى من قبل . وبعد شهور قليلة أصبحت سياسة بريطانيا الدفاعية واضحة كل الوضوح ، وهي أن تصبح رادعا نوويا تحت تصرف أمريكا وفي خدمتها !

الدكتور جميل مستر هايد زوالوجين

في ١٢ من مارس ١٩٥٨ وجه ماكميلان خطاباً الى اللجنة السياسية في حزب المحافظين ، وقصد نشر خطابه في كتيب تحت عنوان « الطريق الوسط ، وهذا يذكرنا بكتاب آخر تحت هذا العنوان نفسه . كان قد نشره منذ عشرين عاماً .

وقد بدأ خطابه ، أو كتيبه ، بالقول بأن عضو البرلمان المحافظ اذا كتب فهو إنما يعبر عن رأيه الشخصي فقط وليس عن رأي الحزب ، وأن هذا العضو نفسه قد يناقض في خمسينات القرن ما سبق أن اعتنقه في الثلاثينات من مبادئه .

والحقيقة ؛ التي لا مراء فيها ، أن ماكميلان استطاع بحيله ومهارته في المداورة ، والتلاعب بالمبارات ، والتظاهر أحياناً بأنه مخطيء وأنه يلوم نفسه على ذلك ، استطاع بذلك كله أن يفوز بالمطف بل بالتقدير . ولكنه

فى الحقيقة أصبح شخصا يختلف اختلافا تاما عن ماكميلان الشاب النائر وأرائه التقدمية واتجاهه الى خدمة الطبقات العاملة . وحينما كان نائبا شابا حديث عهد بمجلس العموم ، تنكر لزعماء حزب المحافظين الذى ينتمى اليه ووصف هؤلاء الزعماء بأنهم كالحشيش المسندة التى لا تنمى ولا تنفع شيئا ولكنها كما تريد لها التقاليد العتيقة البالية أن تتحرك . وكان من بين هؤلاء الزعماء تشمبرلين ، وبولدين ، وماكدونالد . أما القدماى من أعضاء البرلمان المحافظين ؛ الذين كانوا يسخرون منه فى بداية حياته البرلمانية ، فقد أصبحوا اليوم من أقوى أنصاره ومن أشد المتحمسين لتأييده .

ترى : هل تغير ماكميلان أو تغير هؤلاء المحافظون ؟

حينما كان تشرشل من شباب الاحرار ، قبل أن ينضم الى صفوف المحافظين ، ثم قبل أن يصبح زعيمهم ؛ وصف جماعة المحافظين بأنهم « عصابة » تضم أصحاب المصالح فى اتحاد قوى لاستغلال الشعب . فهم يقرافون الظلم داخل بلادهم ، ويحاولون ستر جريمتهم الوطنية بجريمة خارجية على حساب شعوب أخرى . وماكميلان بدوره لم يبلغ مابلغه تشرشل من الفصاحة وسحر البيان ولكن هؤلاء المحافظين لم يسلموا من لسانه . وإذا كان تشرشل قد انتهى به المطاف الى زعامة أولئك الذين ندد بهم واستنكر سلوكهم المريب ، فإن ماكميلان أيضا لم يشذ عن تلك القاعدة .

لقد قدم القصصى الاسكتلندى ستيفنسون ، للعالم مثلا خالدا لصاحب الشخصية المزدوجة ، مثلا فى الدكتور جيكل والمستر هايد ، وماكميلان لا يخرج فى حياته السياسية عن أنه هذا الانسان المزدوج الشخصية الذى يظهر على المسرح مرة فى ثوب المستر هايد ويظهر مرة أخرى فى زى الدكتور جيكل .

لقد درس الاقتصاد، فى حياته الاولى، وأخرج بعض كتيبات اقتصادية ليسبت ذات قيمة علمية، ولكنها على أى حال توحى بأنه يأخذ نفسه بالدرس والتحصيل ؛ وأنه يتجه نحو الإصلاح الاجتماعى، ويعمل بجهد لحل المشاكل الاجتماعية الكبرى ، كمشكلة الفقر ومشكلة البطالة والظلم الاجتماعى .

كذلك كان فى حياته الاولى يدعو الى اعداد برنامج شامل لاعادة التنظيم الصناعى ، واتهمه قدامى المحافظين فى ذلك الوقت بأنه يدعو الى آراء ثوزية .

لقد قال فى الخطاب ، الذى وجهه لشباب المحافظين ، ان كثيرا من الآراء التى تضمنها كتابه « الطريق الوسط » الذى صدر منذ عشرين عاما أصبح اليوم غير ذى موضوع . ولكن : هل حقيقة أن الاوضاع البريطانية التى انتقدها ماكميلان عام ١٩٣٨ قد تغيرت وحلت محلها أوضاع جديدة أكثر صلاحية عام ١٩٥٨ ؟ الواقع أنه حدثت تغييرات كبيرة سواء فى معدل البطالة أو فى مستوى المعيشة أو فى الخدمات الاجتماعية ، ولكن الفضل فى ذلك كله يرجع الى الاجراءات التى اتخذها الاشتراكيون البريطانيون الذين يسخر منهم ماكميلان الآن ويوجه اليهم تقده اللاذع .

لقد تضمن كتاب ماكميلان القديم « الطريق الوسط » إصدار تشريعات تستهدف إعادة التنظيم الصناعي ، بحيث تضمن الطبقة العاملة مستوى عاليا من المعيشة ، وهذه التشريعات تقتضى تدخلا كبيرا من الدولة فى المشروعات الرأسمالية الفردية ، يمكن بذلك رفع مستوى الاجور وإحاطة العمال بالضمانات الاجتماعية . فهل طالب ماكميلان عام ١٩٥٨ ، وهو رئيس للوزراء ، بمثل هذه التشريعات ؟ لا . فهو يعلم علما تاما أنه لو فعل ذلك لنتكر له أصحاب المصالح الكبرى ، ولهم من المحافظين ؛ ولعلوا سريعا للتخلص منه . لقد قبلوه رئيسا للوزراء بشرط ضمنى ، وهو ألا يمس مصالحهم بسوء ، وألا يصدر أى تشريع من شأنه أن يؤثر على رأس المال الخاص .

ولقد تحدث ماكميلان فى كتابه السابق « الطريق الوسط » عما لنقابات العمال من أهمية كبرى ، حتى لقد قال ان الفارق الاساسى بين مجتمع ديمقراطى ومجتمع يقوم على الحكم الاستبدادى هو وجود نقابات العمال فى المجتمع الاول واختفاؤها من المجتمع الثانى ، ولا يكفى هذا بل لا يد من أن تقوم النقابات على أسس تنظيمية يختارها العمال أنفسهم ، وأن كل تنظيم صناعى لا يكفل حقوق العمال انما هو تنظيم رأسمالى خاطئ .

هذا هو قوله فى شبابه . ولك أن تقارن الآن بين آراء ماكميلان ، الشاب التقدمى الثائر على الرأسمالية ، وبين ماكميلان رئيس الوزراء وزعيم المحافظين حينما يقول عن نقابات العمال :

نحن جماعة المحافظين نرى أن الهدف الاول هو الوحدة القومية . ولكن اذا كان المحافظون يهدفون حقا الى الوحدة القومية فلماذا لا يقبلون بين صفوفهم من يمثل نقابات العمال والتعاونيات ، فهى هؤلاء لاتضمهم عبارة الوحدة القومية ؟ أو أن الوحدة القومية وقف على طبقة ممتازة ، هى حزب المحافظين ؟

الواقع أن ماكميلان ، الشاب ؛ ما كان ليعارض الاشتراكية أو التأميم من حيث المبدأ ، بل كان على استعداد لقبول تأميم بعض الصناعات، ولقد أنهى كتابه بفضله عن « إعادة التنظيم الصناعى » قال فيه : يجب قبول العلاج الذى اقترحه الاشتراكيون ، وهو تأميم بعض الصناعات والخدمات التى ينطبق عليها المبدأ العام ، وهو : هل استنفد المشروع الفردى أغراضه الاجتماعية ؟ وهل الاصلاح للاقتصاد الوطنى أن ننظر الى بعض الصناعات والخدمات الرئيسية نظرة أوسع وأشمل على أساس من الاعتبارات الاجتماعية بدلا من أن ننظر اليها من ناحية تحقيق الربح فقط ؟ .

فماذا جرى حتى تتعرض حكومة العمال الى نقد ماكميلان العنيف وسخريته اللاذعة لسبب واحد فقط وهو أنها طبقت ما سبق أن أوصى به فى كتابه « الطريق الوسط » ؟

ان الشيء الوحيد الذى جرى ، هو أن ماكميلان تنكر لمبادئه فى سبيل الاحتفاظ برضاء المحافظين عنه ، أو بمعنى آخر فى سبيل الفوز برياسة الوزارة وزعامة حزب المحافظين .

رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتي

لقد أثارت رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتي في فبراير ١٩٥٩ اهتمام العالم بأسره ، وكثر التساؤل عن السبب الذي حدا به للقيام بهذه الرحلة والامل الذي يريد تحقيقه من ورائها. ولقد استقبلت موسكو هذا الزائر الغربي المفاجيء القادم من الغرب بما يستحقه من تكريم . وحينما هبط من الطائرة التي أقلته الى الاتحاد السوفيتي عزفت فرقة موسيقى الجيش الاحمر نشيدا عسكريا ، وكان في استقباله في المطار خروشوف وكبار رجال الحكومة السوفيتية والهيئة الدبلوماسية، وتعمالت التهاتفات حينما أخذ يستعرض حرس الشرف .

وقد أثارت قبعته البيضاء، المصنوعة من جلد الدب، كثيرا من الدهشة والسرور ؛ اذ يبدو أنه أول زائر وصل الى موسكو في هذا الزى . ولقد علقت الصحف على قبعته الغربية قائلة انها اهديت اليه من صديق كندي وعلى أي حال فلم تكن لباس رأس مألوف في موسكو . وقد ألقي خروشوف خطاب ترحيب مسهباً ذكر فيه أن ماكميلان قد سبقت له زيارة الاتحاد السوفيتي منذ ثلاثين عاما مضت ، وفي هذه الفترة الطويلة تغيرت معالم الاتحاد السوفيتي بل تغير العالم كله . وأكد خروشوف في خطابه أن الاتحاد السوفيتي ينشد السلام، وأنه على استعداد للدخول في محادثات مثمرة ، ودعا الى التفاهم بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي قائلا انه لحير السلام العالمي .

وكان قد مضى على زيارة خروشوف الى لندن ثلاث سنوات حتى ذلك التاريخ ، وفي هذه الفترة تأثرت العلاقات بين البلدين بالحرب الباردة ، ولكن خروشوف أعلن أنه يعتبر زيارة ماكميلان لموسكو اذابة لجليد الحرب الباردة وأن الاتحاد السوفيتي يرحب ترحيبا حارا بهذه الزيارة ، وسوف يبذل أقصى ما يستطيع من جهد ليجعل منها زيارة مثمرة .

ومن الواضح أن ماكميلان تأثر كثيرا بهذا الاستقبال الحافل . ولنذكر هنا أن أول رئيس وزارة بريطانية زار الاتحاد السوفيتي هو ونستون تشرشل ، وكان ذلك في أثناء الحرب العالمية الثانية ، أما ماكميلان فهو أول رئيس وزارة بريطانية يزور الاتحاد السوفيتي وقت السلم .

وقد كان لزيارته أسباب ثلاثة : أولا أنها رد لزيارة خروشوف لـلندن منذ ثلاث سنوات سابقة ، وثانيها أن ماكميلان كان يود أن يشهد بنفسه ما حققه الاتحاد السوفيتي من تقدم منذ زيارته السابقة له ، وقد مضى عليها نحو ثلاثين عاما ، والسبب الثالث أنه كما يريد أن يجري محادثات جدية أملا في الوصول الى تفاهم يخفف من حدة التوتر الذي يسود العالم وصرح ماكميلان بأن هذا هو أهم أهدافه ، وأنه يرجو ألا يعود من موسكو الا وقد حققه كله أو معظمه .

وقد غادر خروشوف وماكيلان موسكو الى مقر ستالين الريفى ، حيث بدأ محادثات طويلة ذكر فيها خروشوف ضيفه بأنه سبق أن وجه

حديثا الى الشعب البريطانى دعا فيه الى اجراء محادثات سوفيتية بريطانية لعقد ميثاق عدم اعتداء بين البلدين ، وهنا اعلن خروشوف أن الاتحاد السوفييتى على اتم استعداد لاجراء محادثات بشأن هذا الميثاق ، بل توقيعه .

وقد اثار تصريح خروشوف الحيرة فى نفس ماكميلان الذى لم يكن يتوقع مثل هذه التطورات المفاجئة . ومن المؤكد أنه لم يجهز الى موسكو لتوقيع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، لانه لن يجرؤ على أن يفعل ذلك قبل استشارة حلفاء بريطانيا .

وحينما ظهر رئيسا الوزراء فى المقصورة الخاصة فى مسرح البولشوى لاحظ الصحفيون عليهما الوجود ، وأن تلك الحرارة التى كانت باديه عليهما فى أول استقبال قد فترت كثيرا عما قبل . وكان من المفروض أن يسافرا معا الى كييف ، ولكن خروشوف اعتذر فى اللحظة الاخيرة ، بحجة أنه يحضر ألما شديدا فى أسنانه . وقد كتبت الصحف البريطانية بأن اعتذار خروشوف من عدم اصطحاب ماكميلان الى كييف اهانة شخصية لرئيس وزراء بريطانيا ، وطالبت بأن يلغى ماكميلان زيارته الى كييف وليننجراد وأن يعود أدراجه الى لندن . ولكن ماكميلان ذهب لزيارة ليننجراد حيث وجد فى استقباله ميكويان الذى حضر خصيصا من موسكو لاستقباله . ولم يظهر ماكميلان أى استياء أو شعور بالكرامة المجروحة ، وهكذا مر الحادث بسلام وتحسن الجو ، وهذا مما ساعد على تجديد المحادثات مع خروشوف فى موسكو .

ولقد ألقى ماكميلان عدة خطابات أعلن فيها عن رغبته فى أن تكون العلاقات بين بريطانيا والاتحاد السوفييتى ودية ، وشرب أنخابا كثيرة تبدل على أنه كان حقيقة يعنى ما يقول . وكان أهم خطاب يدور حول هذا المعنى ، ذلك الذى القاه فى السفارة البريطانية بموسكو فى مأدبة أقامها تكريما لخروشوف .

وقد وجه ماكميلان حديثه فى هذا الخطاب الى خروشوف قائلا : سيدى رئيس الوزراء : لقد شجعت بنفسى جهودكم العظيمة فى بناء اقتصاديات الاتحاد السوفييتى ، ولشد ما أعجبني المآكم بتفاصيل المشروعات والبرامج التى أنتم بسبيل تنفيذها . وإن هذا هو حقاً برنامج انشائي عظيم ، وإن آفاق المستقبل لتبدو أمام الاتحاد السوفييتى فسيحة وواسعة . لقد شاهدت الافران العالية يرتفع لهما عاليا فى سماء الاتحاد السوفييتى وفوق ما كان من قبل أرضا مقفرة ، ليعلن هذا اللهب للعالم أن هذه أرض المستقبل . وليس ما أقوله سرايا أو خيال شاعر ، ولكنه الحقيقة الواقعة . إن السرعة التى تم بها تقدمكم الصناعى شيء غير عادى لا مثيل له فى التاريخ .

ورد عليه خروشوف مثنيا على أعماله كوزير للاسكان ووزيرا للخارجية وزيرا للمالية ، وهكذا ذهب كل من الرجلين شوطا بعيدا فى اضمحاء الثناء على الآخر ، حتى لقد شك الصحفيون فى أن ما قيل فى هذه الليلة كان كله صالحا للنشر . ولكن السفارة البريطانية فى موسكو أياحت للصحفيين نشر كل ما كتب ، حتى ما قيل من أن سهول الاتحاد السوفييتى هى « أرض المستقبل » . ولقد قلق بعض الصحفيين عما سوف يكون عليه صدى خطاب

ماكميلان فى صفوف المحافظين فى بريطانيا ، وأظهر آخرون خوفهم مما سوف يكون لهذا الخطاب من رد فعل عنيف فى بون، وباريس، وواشنطن.

وهكذا بدا أن « ألم أستان » خروشوف قد زال ، ولذلك عاد الى الحديث مرة ثانية عن ميثاق عدم الاعتداء بين موسكو ولندن ، فقال فى حديثه مع ماكميلان :

لقد اقترحنا توقيع اتفاق عدم اعتداء بين الاتحاد السوفيتى وبريطانيا اعتقادا منا بأن ذلك سوف يتيح الفائدة العظمى لشعبينا وللسلام العالمى . وطبقا لهذا الاتفاق يكف كل من البلدين عن توجيه أى نوع من الهجوم للبلد الآخر ، كما يعلن الطرفان أنهما لن يلجأ الى استخدام القوة بعضهما ضد البعض . ويتضمن مثل هذا الاتفاق ألا يسمح أى من البلدين بإنشاء قواعد أجنبية على أراضيه ، وأن تتخذ الإجراءات اللازمة لازالة القواعد الاجنبية القائمة فعلا .

وتقتضى روح الميثاق بأن أى خلاف بين البلدين ، مهما تكن درجته ، لا بد أن يسوى بالطرق السلمية والتفاهم المتبادل ، وذلك باجراء محادثات طبقا لميثاق الامم المتحدة . واعتقادنا أن هذا سوف يلقي ترحيبا حارا من الشعبين البريطانى والسوفيتى .

وقد رد ماكميلان على هذا الخطاب ولكنه تحاشى الخوض فى الحديث عن ميثاق عدم الاعتداء واكتفى بأن قال :

انردى على ميثاق عدم الاعتداء الذى تقترحونه (بلاحظ القارئ هنا كذب ماكميلان لان اقتراح ميثاق عدم الاعتداء كان صادرا منه أصلا فى حديث اذاعى سبق أن وجهه الى الشعب البريطانى) هو أنى على استعداد للموافقة فورا على ما يلى :

١ - أن بريطانيا على استعداد لتعمل طبقا لميثاق الامم المتحدة نصا وروحا فى كل نزاع يثار بين البلدين .

٢ - لا ينبغي لاي من البلدين أن يسعى من جانبه الى الاضرار بما للبلد الآخر من حقوق والتزامات ومصالح حيوية .

٣ - طبقا لهذين المبدأين فان الحكومة البريطانية توافق على أن كل نزاع يجب أن يسوى بالمفاوضات ، لا بالقوة .

٤ - من المسلم به أن مثل هذا الاتفاق لا ينبغي أن يتعارض مع تسلك كل منا التام بحلفه الدفاعى ، الى أن يجرى اليوم الذى يستغنى فيه العالم عن مثل هذه الاجراءات الوقائية .

وكان ماكميلان يقصد بعبارة الاخيرة بعث الاطمئنان الى بون وباريس وواشنطن ، وقد صرح فى حديث اذاعى قائلا :

سوف نبدأ بميثاق عدم اعتداء ؛ وهذا ليس شيئا جديدا ، ولن يترتب عليه أى ضرر بل انه على العكس سوف يكون محمود العاقبة .

هكذا يرى القارئ أن ماكميلان أعلن أنه سوف « يبدأ » أى أنه سوف

يتخذ الخطوة الاولى نحو عقد ميثاق عدم اعتداء ، ولكن لا ندرى ما الذى قاله خروشوف من وراء ستار حتى أصابه « ألم الامتنان » !

وحيثما عاد الى لندن ألقى خطابا قال فيه ان بريطانيا فى أشد الحاجة الى السلام ، لانه هو السبيل الوحيد الى تنمية تجارتها الخارجية . ومن ثم إلى رعايتها ، واعترف بأن هناك خلافات كبيرة بين الاتحاد السوفييتى وبريطانيا ولكنه أكد أن هدفهما واحد ، وهو الحيلولة دون نشوب حرب عالمية ثالثة .

ولاشك فى أن مشاهدته فى موسكو وكييف وليننجراد قد خلفت أثرا عميقا فى نفسه وبخاصة أنه كان قد زار الاتحاد السوفييتى منذ ثلاثين سنة . ولذلك فهو يستطيع ادراك التقدم الهائل الذى حققه الاتحاد السوفييتى فى هذه الحقبة .

ولقد زار ماكملان الجامعة الجديدة على مرتفعات لينين ، ولما صال مديرها : كم عدد طلبة الجامعة ؟ أجاب المدير بأن بها عشرة آلاف طالب نظامى ، وضعف هذا العدد من غير النظاميين والمتسربين ، وأن جميع الطلبة يتكلمون الانجليزية .

وقد أتاح المستولون السوفييت الفرصة أمام ماكملان لمشاهدة أكبر قدر من التقدم الذى أحرزه الاتحاد السوفييتى ، فزار دوبنا ، حيث أنشئ معهد الأبحاث النووية ، وقد أطلعه المشرفون على المعهد على خمسة أقسام ، وهى قسم الأبحاث النووية ، وقسم الطاقة العليا ؛ وقسم الطبيعة النظرية ، وقسم الطبيعة النيوترونية ؛ وقسم المفاعلات النووية ، وما أن خرج ماكملان من المعهد حتى كان على يقين من أن الاتحاد السوفييتى فى مقدمة دول العالم فى الأبحاث النووية .

وفى أثناء وجوده فى كريف زار إحدى المزارع الجماعية ، واطلع على سير العمل فيها وعلى إنتاجها الزراعى . وحيثما زار ليننجراد أطلعه الاميرال يوجدنكو على محطة الجليد النورية « لينين » وهى أول محطة جليد ذرية فى العالم .

وحيثما قاربت زيارة ماكملان للاتحاد السوفييتى نهايتها ظهر مشكل جديد ، ذلك أن خروشوف كان يريد أن يضمن البيان المشترك إشارة الى ميثاق عدم الاعتداء ، فى حين كان ماكملان يعمل على تجنب ذكر الميثاق ، خشية أن يكون فى ذلك ما يفضض أمريكا وفرنسا والمانيا الغربية ؛ وأخيرا تم الاتفاق على بيان مشترك أولى به أن يوضع فى « سراديب المتحف الدبلوماسى » ، إذ كان كله تمنيات حول نزع السلاح ، ومنع التجارب النووية ، وأمل فى حل مشكلة برلين .

وبسبب فشل المحادثات فى الوصول الى حلول محددة لهذه المشكلات الكبرى فقد اعترفا فى البيان بالحاجة الماسة الى اجراء محادثات مبكرة بين الدول صاحبة المصالح لتسوية ما بينها من خلافات ، إذ أن مثل هذه المحادثات سوف تكون أساسا للامن الاوروبى . كذلك أعلننا اتفاقهما على مواصلة البحث فى موضوع تعزيز الامن ، وذلك بتحديد القوات والاسلحة

التقليدية والنووية في منطقة أوروبية يتفق عليها ، وأن يقترن ذلك بالاتفاق على إنشاء نظام للتفتيش .

وتضمن البيان اشارة الى موافقة الطرفين على التبادل الثقافي بين بريطانيا والاتحاد السوفيتي ، على أن يقوم وزير بريطاني بزيارة قريبة لموسكو للبحث في الامكانيات اللازمة لمصاعفة التجارة بين البلدين .

وأتاحت الفرصة أمام ماكميلان كي يوجه حديثا في التلفزيون للشعب السوفيتي ، ومما هو جدير بالذكر أن التلفزيون شائع الاستعمال هناك ، وأن عشرات الملايين من الاجهزة موزعة على المدن بل القرى السوفيتية . وقد استهل ماكميلان حديثه الى الشعب السوفيتي بوصف أسلوب الحياة في بريطانيا ، وكيف ان الحياة فيها قد تغيرت تغيرا تاما عما كانت عليه في عهد ديكنز ممثلة في قصة « أوليفر تويست » وذكر الارقام الضخمة التي تنفقها بريطانيا على الآلات الزراعية والسيارات والمساكن وأجهزة المنازل ، ثم تحدث عن الجامعات البريطانية وعدد طلبتها . كذلك ذكر ماكميلان أن مستوى المعيشة في بريطانيا أعلى منه في أي بلد أوروبي آخر .

ولم يفته أن يتحدث عن الحياة الروحية قائلا ان الانسان لا يحيا بالمادة وحدها ، بل لا بد من توازن بين الحياة المادية والحياة الروحية ، وأن البريطاني يأخذ من كل منهما بنصيب، وأخيرا فان الدولة تعيش من أجل الفرد ، وليس يعيش الفرد من أجل الدولة .

هكذا عاد ماكميلان الى انجلترا وكأنه رجل السلام ، فهتف له المحافظون في مجلس العموم وكذلك هتفت له المعارضة ، وكانت هذه المرحلة حركة بارعة من ماكميلان وبخاصة أنه مقبل على الانتخابات العامة .

ولنتنقل الآن الى جانب آخر من الصورة لنجد نقدا عنيفا موجها الى ماكميلان ، من بون وباريس وواشنطن ، بسبب رحلته الى موسكو ؛ وأصبح لزاما عليه أن يزور العواصم الثلاث ليشرح وجهة نظره . وما تم في رحلته الى موسكو .

والذي أثار العواصم الثلاث، وبخاصة برلين، هو ما أشار اليه البيان المشترك من قبوله لفكرة إنشاء منطقة منزوعة السلاح في أوروبا ، وهذا يذكرنا بمشروع راباكي لإنشاء منطقة منزوعة السلاح في أوروبا الوسطى ، وهو المشروع الذي قبله الاتحاد السوفيتي ورفضته فرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة .

ولقد كتب مراسل «التايمز» في باريس أن ماكميلان ووزير خارجيته سلوين لويد حينما زارا باريس ، لتوضيح موقفهما من مشروع المنطقة المنزوعة السلاح ، وجدا مشقة كبرى في اقناع المسئولين الفرنسيين بوجهة نظرهما ، وقال ماكميلان أنه لم يتصد مطلقا إنشاء « فراغ » في وسط أوروبا ، وأن ماقصده ليس مشروع راباكي ، بل المشروع الذي اقترحه ايدن عام ١٩٥٥ ، وهو الذي يقضى بتحديد الأسلحة والقوات العسكرية في منطقة يتفق عليها ، على أن يقترن ذلك بنظام محكم للتفتيش .

وعلق مراسل « التايمز » على زيارة ماكميلان لباريس قائلا : انه رئيس الوزراء فشل في اثارة اهتمام المسؤولين في فرنسا بزيارته لموسكو .
واذا كانت الدوائر الرسمية لم توضح موقفها توضحا تاما من هذه الزيارة فان الدوائر غير الرسمية قد اوضحت موقف فرنسا بما لا يدع مجالا للشك . ذلك ان فرنسوا بونسيه ، سفير فرنسا السابق في المانيا الغربية ، كتب مقالا في جريدة « الفيجارو » قال فيه ان زيارة ماكميلان لموسكو تشبه زيارة تشمبرلين لميونخ .

وهناك نقطة اخرى قد تعتبر شخصية ، وهي ان ديجول استاء من ان ماكميلان قد اتخذ لنفسه « مركز الزعامة في الغرب » .

اما اديناور فقد ألقى خطابا أقل ما يقال عنه انه « فاتر » وقد استنكر فيه موافقة ماكميلان على انه « يجب عمل شيء » في موضوع الاعتراف بالمانيا الشرقية ، قائلا ان هذا لم يكن متوقعا من ماكميلان .

اما الصحافة الامريكية فقد وجهت سيلان من النقد الى ماكميلان ، فقد انكرت عليه صحيفة « نيويورك تايمز » اتخاذ دورا أساسيا في معاملة الغرب للاتحاد السوفييتي وانه كان يحاول استرضاء موسكو .

وحينما زار ماكميلان واشنطن ألقى على ايزنهاور في قبول اقتراح عقد مؤتمر الاقطاب ، وأكد له انه لم يفكر مطلقا في استرضاء السوفييت .

وكتبت مجلة « تايم » انه عقد اجتماع هام في منزل ريتشارد نيكسون . نائب رئيس الجمهورية في عهد ايزنهاور ، واشترك في هذا الاجتماع كبار رجال الكونجرس الأمريكي ، الذين شددوا الخناق على ماكميلان بشأن زيارته للاتحاد السوفييتي . وقد رد ماكميلان على هؤلاء قائلا : انني مصمم على عقد مؤتمر للاقطاب لتخفيف حدة التوتر بين الشرق والغرب . ليس في استطاعتي ان اذهب الى الملكة لا طلب اليها الموافقة على اجلاء ملايين النساء والاطفال والمسنين من دورهم وارسلهم الى بلاد الكومنولث الا بعد ان استنفد كل وسيلة للتفاهم .

وقد اتهمه كثير من أعضاء الكونجرس ، وخاصة سنيتل بروجز ، وجون ماك كورماك ؛ بأنه يسترضي الاتحاد السوفييتي . وهنا ثار ماكميلان قائلا : أنا لست نيفل تشمبرلين ، وأعلن لكم أنني أول من يكره كلمة « استرضاء » .

وعلى أية حال فقد وافق بعض أعضاء الكونجرس على موقف ماكميلان ، وبخاصة السناتور هيرت همفري ، والسناتور ليفريت سالتونستول ، أما ايزنهاور وكثيرون من كبار المسؤولين فقد كانوا مترددين في قبول عقد مؤتمر للاقطاب من غير أن يسبق ذلك مؤتمر تمهيدي على مستوى وزراء الخارجية .

والذي يستخلص من موضوع رحلة ماكميلان الى موسكو انها اذا كانت قد أثارت ضده باريس وبرلين ، وقوبلت بكثير من الشك والتردد في واشنطن ، فقد رحب بها الشعب البريطاني وكانت سندا قويا لماكيلان في الانتخابات التالية .

بيع رئيس الوزراء

قبل الانتخابات العامة الاخيرة فى بريطانيا فى أكتوبر ١٩٥٩ ، كان المحافظون قد اعلوا حملة قوية منظمة للدعاية ، وانفقت الشركات الكبرى مبالغ ضخمة على الاعلان ، سواء فى الصحف أو بالانفقات أو بآلة وسيلة . من وسائل الاعلان رأها الخبراء الذين استأجرهم حزب المحافظين . وكان من بين وسائل الاعلان صورة ضخمة لهارولد ماكميلان وهو يطل من عل على الشعب الانجليزى من أقصى البلاد الى اقصاها ، وقد قدره « بتلر » ما أنفقه حزب المحافظين على الدعاية للانتخابات فيما بين عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٩ بما لا يقل عن ٤٦٨ ألف جنيه استرليني ، وكان من بين وسائل الاعلان توزيع ٢٥٠ ألف حديث مسجل لماكميلان على مختلف الدوائر الانتخابية . وقد علق كروسمان على ذلك قائلا : « ان رئيس الوزراء كان يوزع على الجمهور فى بريطانيا كما توزع أدوات التنظيف » !

وعلق جوردون ووكر ، فى احدى جلسات مجلس العموم ، على هذا الحادث قائلا : ان شركة كولمان وفارلى للاعلان كانت تعد صور ماكميلان « وتبيعه » كما تفعل ببقية اعلاناتها عن السلع الاخرى سواء بسواء مثل الشيكولاته وشاي ليونز وغيرها . والشئ الغريب فى ذلك هو قيام شركة اعلانات ببيع رئيس وزراء بريطانيا وبيع حزب المحافظين بل ببيع الآراء السياسية كأنها بضائع معبأة ، وكان بريطانيا قد صبت فى قالب امريكى .

ولم يكن فى تعليق جوردون شئ من المبالغة ، فقد سبق لحزب المحافظين ان بحث دونالد كابيرى ، نائب رئيس الحزب ؛ الى امريكا ليدرس أحدث وسائل الاعلان التى استخدمت فى انتخابات الرئاسة الامريكية .

وقد كان لفوز المحافظين فى الانتخابات رنة فرح عظيمة بين صفوفهم ، فارتفعت اسعار البورصة ، واطمان ملوك الصناعة البريطانية وكبار رجال الاعمال على أن مقعد وزير المالية الجديد لن يشغله رجل يصدر تشريعات تعوق ما هم جادون فيه من جمع للثروة وتكديس للاموال .

ولما اطمأن ماكميلان الى انه قد ثبت مركزه فى البرلمان اتجه الى ناحية أخرى وهى الناحية الدولية ، فاراد أن يحرز فيها من النصر ما أحرزه فى الانتخابات البريطانية العامة .

كان ماكميلان يسعى الى عقد مؤتمر للاقطاب يضم امريكا وفرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتى ، وقد استشعر الارتياح حينما تمت الموافقة على عقد هذا المؤتمر فى باريس . وكان ماكميلان قد مهد لهذا المؤتمر بالمحادثات التى أجراها مع خروشوف حين زيارته لموسكو ، ولذلك فإن الموافقة اذا تمت على ماجرى الحديث بشأنه فى موسكو لأصبح ماكميلان رمز السلام العالمى . وكانت المقدمات تبعث على التفاؤل ، فقد سافر خروشوف قبل ذلك فى رحلة طويلة الى امريكا استطاع فى خلالها أن يذيب بعض ثلوج الحرب الباردة الكثيفة ، وبيعت بعض التحسن فى

العلاقات بين أمريكا والاتحاد السوفيتي. ولما أعلن رسميا انه قد تحدد شهر مايو ١٩٦٠ موعدا لانعقاد مؤتمر الاقطاب في باريس تنفس العالم الصعداء وأخذ يترقب تفريج الازمات العالمية .

وهنا بدأت أسهم شركات الاسلحة الكبرى في أمريكا في الهبوط ، وأخذ كبار المالين في وول ستريت يتساءلون : ماذا يكون الموقف لو قدر لمؤتمر الاقطاب النجاح ؟

ولكن سقطت فجأة من السماء صاعقة ، ذلك أن إحدى طائرات التجسس الأمريكية كانت في طريقها من باكستان الى التروبيج فأسقطها السوفييت فوق أرضهم قرب مدينه سفرولوفسك . وقد احتج خروشوف في غضب وعنف قائلا ان هذا التجسس يتعارض مع جميع نصوص القانون الدولي ، وازداد الموقف سوءا حينما فسر الأمريكيون الموقف بأنها طائرة أمريكية ضلت طريقها . فقد أثبتت الوثائق ، التي عثر عليها السوفييت ، ان الطائرة كانت تتجسس فوق أراضيهم . وهنا أدرك العالم كله مدى مدى مافى البيان الأمريكي من كذب .

ولا ندرى ما علق به ماكميلان على هذا الحادث ، ولكن المهم أن الحادث حطم آماله تحطيما نهائيا .

كذلك لا ندرى أنس ماكميلان من نفسه الجراءة على الاتصال بواشنطن والاحتجاج عليها لهذا العمل أم لا ، ولكن المؤكد ان ماكميلان لم يلق بيانا عنيفا ضد أمريكا في مجلس العموم البريطاني . وإذا كان قد سب أمريكا ولعنها بينه وبين نفسه أو بينه وبين الصفوة من أصحابه، فإنه في المواقف العامة قد التزم جانب الدبلوماسية الدقيقة والمجاملة ، ولعله كان يخشى ان يؤدي الأمر الى عدم انعقاد مؤتمر الاقطاب ، ولم يطمئن قلبه الا حينما صدر اعلان من الكرملين بأن خروشوف سوف يشترك في مؤتمر الاقطاب .

هنا بدأ ماكميلان يسترد أنفاسه، وأخذ يراوده الامل بأن يكون حكما ومصلحا بين الطرفين .

ذهب ماكميلان الى باريس ولديه أمل قوى في عمل شيء يحقق له المجد ، ولكن خروشوف حطم أمله مرة ثانية بتقديم شروط قاسية لم يقبلها ايزنهاور ، منها أن يقدم ايزنهاور اعتذارا رسميا وضمانا بالآ تحلق طائرات التجسس « ي - ٢ » في سماء الاتحاد السوفيتي ومنها أيضا معاقبة المسؤولين عن الحادث .

وقد أخذ ماكميلان يتردد بين الطرفين محاولا اصلاح ذات البين ، ولكنه فشل في محاولته ، كما أن مؤتمر الاقطاب كان أكبر فشل دولي منذ الحرب العالمية الثانية .

وهكذا عاد ماكميلان الى مجلس العموم حزينا كاسف البال ، إذ أن أمنيته الكبرى في تحقيق نصر دولي قد تحطمت .

ريج النغبر ترب على افريقيا

لما تولى هارولد ماكميلان رئاسة الوزارة قرر أن يزور في خلال توليه هذا المنصب أكبر عدد من بلاد الكومنولث ، ففي أواخر عام ١٩٥٨ زار الهند وباكستان وسيلان وأستراليا ونيوزيلندة - وفي أواخر عام ١٩٥٩ قام برحلة الى افريقيا زار في خلالها غانا ونيجيريا واتحاد افريقيا الوسطى (اتحاد روديسيا ونياسالاند) واتحاد جنوب افريقيا • ولم يكن هدفه من هذه الزيارات حل مشكلات معينة قائمة بين المملكة المتحدة وبلاد الكومنولث ، فهذه يترك أمرها الى المسؤولين كل في دائرة اختصاصه ، ولكنه كان يرى أن زيارة رؤساء وزراء بلاد الكومنولث لندن في مؤتمرهم السنوى لا ينبغي أن يكون عملا من جانب واحد ، بل يجب على رئيس وزراء بريطانيا أن يشاهد بنفسه مختلف بلاد الكومنولث وما يجرى فيها وما حققته من تقدم ، ونحن نقر وجهة نظره هذه ، فهي خطوة من جانبه تستحق التقدير والثناء

وقد كانت كل الظواهر تشير الى أن زيارات رئيس وزراء بريطانيا لعواصم الكومنولث كانت موضع تقدير كبير في هذه العواصم ، وهو من جانبه صرح بأن قضاء بضعة أسابيع في بلاد الكومنولث ليس معناه أنه ألم بجميع مشكلاتها ، ولكن هذه الزيارة أكسبته شيئا هاما ، وهو الشعور القوي بأن بلاد الكومنولث عامل قوى من عوامل السلام والتقدم في العالم في وقتنا الحاضر •

ولم يمض عام وبعض العام على هذه الزيارات حتى وقف ماكميلان يواجه التجربة الكبرى ، وهى المفاضلة بين الكومنولث والسوق الأوروبية المشتركة • ولنا أن نتساءل هنا : الى أى حد كان ماكميلان على استعداد للتضحية بالسوق المشتركة في سبيل الاحتفاظ بالكومنولث ؟

لقد شهد بنفسه حين زيارته لغانا ، شهد مدى ما حققته هذه البلاد من تقدم اقتصادى وسياسى واجتماعى ، كذلك أدرك مساهم به الأوروبيون من نصيب كبير في هذا التقدم ، وما يبدو أنهم سوف يساهمون به في المستقبل ، وما تشع به غانا من ود حقيقى نحو بريطانيا •

وفى نيجيريالقى خطبا ، فى أول اجتماع للبرلمان ، على أثر الاتفاق مع بريطانيا على اعلان استقلال نيجيريا ، وأدرك ما تنتظره نيجيريا من مستقبل زاهر وبخاصة بعد اكتشاف البترول وتطوير الزراعة فيها •

وفى اتحاد روديسيا ونياسالاند أجرى محادثات طويلة مع رئيس وزراء الاتحاد ومع رئيس وزراء روديسيا الجنوبية ومع حاكم نياسالاند ومع عدد كبير من زعماء مختلف الهيئات السياسية فى البلاد ، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يكون صورة كاملة ، فهو مثلا لم يجتمع مع الدكتور هاستنجر باندا ، الذى كان لا يزال فى السجن •

وقدلقى ماكميلان خطبا كثيرة ، ولكن أهم خطاب ألقاه وكان له صدق

قوى في اجزاء كثيرة من العالم ، هو الخطاب الذى تلقاه في برلمان جنوب افريقيا في ٣ من فبراير ١٩٦٠ . وقد بدأ ماكميلان خطابه هذا الطويل بنبرة عن جنوب افريقيا وعلاقتها ببريطانيا ووسيلة التعاون بين البلدين وكيف انهما عملتا معا باخلاص في حربين عالميتين ، كما تحدث عن الروابط الاقتصادية الوثيقة التى تمت بين البلدين طوال نصف القرن الماضى .

وتحدث بعد ذلك عن موجة القومية التى عمّت البلاد الافريقية فى الآونة الاخيرة وقال : ان نمو الوعي القومى بين الافريقيين حقيقة قائمة لا بد من الاعتراف بوجودها وليس فى وسعنا الا أن نقبلها ، وأقصد بذلك ، انه لا بد لنا من أن نكون معها على وفاق . واعتقادي أننا اذا اعترضنا طريقها فكأننا بذلك نبعث مزيدا من الخلل فى التوازن المضطرب القائم الآن بين الشرق والغرب ، وهو التوازن الذى يتوقف عليه السلام العالمى .

ان العالم اليوم مقسم الى مجموعات ثلاث كبرى ، وهى المجموعة الغربية أو ما نسميه بلاد العالم الحر وهذه تشمل أوروبا الغربية وأمريكا وبعض بلاد الكومنولث، والمجموعة الثانية هى الدول الشيوعية التى تضم الاتحاد السوفييتى وتوابعه والصين، وهناك مجموعة ثالثة فضلت عدم الانحياز الى الشرق أو الغرب . والموضوع الهام الذى سوف يشغل العالم كله فى النصف الثانى من القرن العشرين هو موضوع هذه البلاد غير المنحازة ، وهل يستقر بها المقام أخيرا على الاتجاه نحو الشرق أو نحو الغرب .

ان الصراع اليوم ليس صراعا ماديا بقدر ما هو صراع لكسب عقول الرجال ، وليست لدينا القوة العسكرية ولا المهارة الدبلوماسية ولا الكفاية الإدارية الكافية لاحتراز النصر فى هذه المعركة « انما سلاحنا هو أسلوب حياتنا . والبلاد غير المنحازة تقف موقف المتفرج على الشرق والغرب ، ولها بعد ذلك أن تختار .

هنا يقف ماكميلان متسائلا : لقد ذكرت ان جنوب افريقيا بين بلاد « العالم الحر » فهل هى حقيقة بلاد يرفرف عليها علم الحرية ويتمتع العشرة ملايين افريقى الذين يعيشون هناك بحقوقهم الكاملة كمواطنين ؟

قد يعتبر تساؤلى هذا تدخلا فى الشؤون الخاصة لاحد بلاد الكومنولث ومبدؤنا فى هذه الرابطة الدولية ألا يتدخل أحدنا فى شئون الآخر الخاصة به . ولكن الشؤون الخاصة ببلد قد يكون لها أحيانا رد فعل خارج هذا البلد . واذا كانت الحكمة القديمة هى : « كن فى حالك » فحكمة العصر الحاضر هى : « كن فى حالك بشرط ألا يؤثر ذلك على حال الآخرين » . وأرد أن أصارحكم القول بأن مسئوليتنا فى البلاد التى تولينا حكمها لم تكن مجرد رفع مستوى المعيشة وكفى ، وانما أن نخلق أيضا مجتمعا تحترم فيه حقوق الأفراد وتتاح فيه الفرصة أمام كل فرد لكى ينمى فرديته بحيث تصل الى مداها الكامل ، ومعنى ذلك أن يحصل الفرد على نصيبه من تحمل المسئوليات السياسية والاقتصادية فى بلده .

هكذا أنهى ماكميلان خطابه فى صراحة ووضوح بحيث لم يكن هناك مجال للشك فيما يهدف اليه . وكان لهذا الخطاب التاريخى صدى بعيد

المدى تجاوز جنوب افريقيا الى القارة كلها ، ثم عبر الصحارى والبحار الى كل شعب ملون يريد أن يتخذ مكانه اللائق تحت الشمس . وأخذ القراء يتساءلون فى كل مكان : متى تهب زيج التغيير فتكتسح جنوب افريقيا ؟ أن الدكتور هيستنجر باندا فى سجنه فى نياسالاند ، وجومو كينياتا فى سجنه فى كينيا ، فمتى تصل نسيمات هذه الريح الى سجنيهما ؟ أن المقام لن يطول بهما !

السير فى ركاب أميركا

حين اجتماع البرلمان فى نوفمبر ١٩٦٠ . كانت الحكومة قد قررت الموافقة على منح الفواصات الامريكية ، التى تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة فى هولى لوتش باسكتلندة . واذا ما قارنا هذا الموقف الذى اتخذته الحكومة البريطانية بموقف ديجون حينما رفض بقاء القاذفات الامريكية فى فرنسا الا اذا اشترك الفرنسيون فى الاشراف عليها ، لتبين لنا ان بريطانيا كانت جد مستسلمة لأمريكا . وبخاصة أن ديجول ، فى محادثاته مع المسئولين الامريكيين بشأن قواعد للقاذفات الامريكية ، ذكرهم بأن القواعد فرنسية وعلى أرض فرنسية ، واذن فمن الطبيعى أن توضع هذه القاذفات تحت اشراف فرنسى كامل ، لا تحت اشراف وزارة الدفاع الامريكية .

ولما ووجه ماكملان بكثير من الأسئلة فى مجلس العموم ، ألقى بيانا قال فيه ان بريطانيا تلقت العرض الامريكى باتخاذ قاعدة لفواصاتها الذرية ، فى أواخر عام ١٩٥٩ ، ثم جرت محادثات بينه وبين ايزنهاور فى هذا الموضوع حين اجتماعهما فى كامب دافيد فى مارس ١٩٦٠ ، واستمرت المحادثات بشأن النواحي الفنية والسياسية المرتبطة بهذا الاجراء حتى أكتوبر .

لقد كان فى بريطانيا قواعد جوية امريكية فى ذلك الوقت ، ولكن الموافقة على منح أمريكا قاعدة بحرية للفواصات ، تحت اشراف أمريكى ، يعتبر اجراء من نوع جديد ، وقد طوّل ماكملان بنشر كتاب أبيض عن المحادثات التى تمت بشأن هذا الموضوع بين الحكومتين البريطانية والامريكية فرفض .

ان هولى لوتش ، وهى الموقع الذى اختير ليكون قاعدة لقواصة « بولاريس » يقع على نهر الكلايد على مسافة عشرين ميلا من جلاسجو ، ولذلك فان الاسكتلنديين لما علموا بالموافقة على انشاء القاعدة رفعوا أصواتهم . عالية بالاحتجاج ، وقدم مؤتمر نقابات العمال فى اسكتلندة ، ومجلس حزب العمال والسلطات المحلية ، احتجاجات شديدة مطالبين بتغيير موقع القاعدة .

ولم تقتصر المسألة على مجرد احتجاج بعض الهيئات ، بل ان القراء الذى اتخذته بريطانيا بالموافقة على انشاء قاعدة لفواصات « بولاريس »

الامريكية على اراضيها أو في مياهاها أثار المشكلة الكبرى ، وهي أن أمريكا تتخذ من بريطانيا قاعدة رئيسية لاستراتيجيتها في أوروبا الغربية .

ان في مدينة جلاسجو وحواليها ما يزيد على مليونين من السكان ، وهؤلاء سوف يتعرضون لأشد الأخطار اذا نشبت حرب نووية وقام السوفييت بهجوم القاعده ، والاستكتنديون يذكرون جيدا أن القاذفات البريطانية في الحرب الماضية طارت الى سواحل اسكتلنده لمهاجمة الغواصات الألمانية . وقد قدر الخبراء أن قنبلة هيدروجينية واحدة كافية لتدمير غرب اسكتلنده كله ، فما بالك اذا اتخذت هولى لوتش قاعدة لأخطر غواصة ذرية أمريكية وهي غواصة بولاريس .

وفي فترة الاسئلة وجه الاميرال جون وجديل سؤالاً الى ماكميلان عما اذا كانت أمريكا قد طلبت من بعض دول حلف الاطلنطي الاخرى منحها قواعد . وقد حاول ماكميلان ان يهرب من الاجابة ، ولكن الاميرال الح عليه ، فرد قائلا : ان موافقتنا على انشاء هذه القاعدة في صالحنا وفي صالح أمريكا وفي صالح حلف الاطلنطي كله ، وعلى أية حال فسؤال العضو المحترم خارج عن الموضوع .

ولكننا نرى أنه سؤال في صلب الموضوع ، فلماذا لم تحاول أمريكا ان تتخذ قواعد على سواحل النرويج مثلاً، وهي أكثر صلاحية من سواحل اسكتلنده لثل هذا النوع من الغواصات ؟ وإذا كانت النرويج غير مستعدة لاجابة مثل هذا الطلب الأمريكي فلماذا قبلته بريطانيا ؟ ثم ما مدى اشراف الحكومة البريطانية على تحركات غواصات « بولاريس » الأمريكية ؟ .

في ١٧ من ديسمبر أعلنت حكومة النرويج أنها قررت رفض تخزين الاسلحة النووية في بلادها ، وانها لم تتخذ هذا القرار الا بعد البحث الدقيق وتقدير جميع الاحتمالات . والآن يقف ماكميلان أمام مجلس العموم ليعلن في غموض وإبهام بأنه مقتنع بأن قذائف « بولاريس » التي تحملها الغواصات النرية لن تستعمل الا بعد المشاورات « الممكنة » مع الحكومة البريطانية ! .

ولكن ماعني كلمة «ممكنة» هذه وما حدودها ؟ أضف الى ذلك أن البيان الذي ألقاه ماكميلان في مجلس العموم أثار الدهشة في أمريكا . فبادرت الحكومة الأمريكية باصدار بيان مضاد أكدت فيه أن الاشراف على غواصات « بولاريس » سيظل من اختصاص الحكومة الأمريكية وحدها.

وحينما طلب من واتكنسون وزير الدفاع أن يلقي بياناً على الرء الأمريكي قال : اعتقد أن سوء التفاهم نشأ من أن كلمة «الممكنة» الواردة في بيان رئيس الوزراء (ماكميلان) قد حذفت من النص المنقول لأمريكا .

ولكن اذا كان حذف كلمة واحدة قد أثار سوء التفاهم بين بريطانيا وأمريكا ، فهل من غير المحتمل ان يحدث خطأ في تفسير أية رسالة بين واشنطن وغواصة « بولاريس » تعمل في المحيط المتجمد الشمالي ؟

ولم يقف استنكار هذا الاجراء الذي اتخذه ماكميلان عند حد

المعارضة البرلمانية فقط ، بل ان صحيفة «سكوتش صندي» نشرت مقالا افتتاحيا تحت عنوان «الاتفاقية المذلة» قالت فيه ان موافقة بريطانيا على هذه القاعدة لابد ان تورطها في حرب نووية مع الاتحاد السوفيتي، ولو ان أمريكا عرضت هذا الاتفاق المذل مع أئمة جمهورية تحت وصايتها في أمريكا اللاتينية لرفضت قبوله .

ولنعد الى ماكميلان فنقول ان موافقته على انشاء قاعدة في المملكة المتحدة لغواصات «بولاريس» زاد من حدة التوتر الدولي الى درجة كبيرة وكان ماكميلان بعمله هذا يناقض ماأخذ به نفسه من الدعوة الى السلام . وليس أدل على التوتر الذي أثاره عمل ماكميلان هذا من الخطاب الذي ألقاه كوزلوف في موسكو بتاريخ ٦ نوفمبر ، اذ قال ان ماكميلان الذي كثيرا مادما الى اجراء مفاوضات من أجل السلام ، يعمل اليوم على تقويض دعائم السلام ، وهذا اكبر دليل على ان دعوته للسلام كانت زائفة .

ومضى كوزلوف يقول : ان ماكميلان في اثناء وجوده في أمريكا لحضور الدورة الخامسة عشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، كان يقوم بدور المنافق ، فهو يجتمع مع الأمريكيين لوضع الاسس التي بموجبها تنشأ قاعدة للغواصة الذرية الأمريكية «بولاريس» ثم يجتمع بالوفد السوفيتي زاعما أن الحاجة ملحة لاجراء مفاوضات لحل المشاكل الدولية

لقد كانت حجة ماكميلان في الدفاع عن موقفه أن استخدام الغواصة «بولاريس» يعتبر ركنا هاما من أركان الرادع النووي ، لانها بتجوالها تحت المياه المتجمدة القطبية تستطيع ان تجول قرب سواحل الاتحاد السوفيتي ، ولكن بعد أن فجر الاتحاد السوفيتي قنابله النووية التي تعادل قوتها ملايين الاطنان من المواد المتفجرة ، في المياه القطبية ، كتبت مجلة «ايكونوميست» أن السوفييت يستطيعون الآن أن يدمروا الغواصة «بولاريس» في المياه القطبية بقوة تفجيرهم النووي من غير حاجة الى معرفة مكانها . وهكذا تبين كذب الدعوى التي يقدمها ماكميلان بأن عمله هذا يقوى الرادع النووي ، وهذا أيضا يؤدي الى تجنب الحرب !

لقد كتب المؤرخ تيلور أن استسلام ماكميلان لأمريكا ، ليس الا نتيجة حتمية للسياسة التي سارت عليها بريطانيا في السنوات العشرين الماضية ، فقد درجت في هذه الحقبة على محاولة استرضاء أمريكا ، وليس تسليحها قاعدة هولي لوتش الاحلقة من هذه السلسلة الطويلة .

وهنا يتساءل تيلور : لماذا يستطيع أديناور أو ديحول ان يؤثر على توجيه السياسة الأمريكية ، في حين يعجز ماكميلان عن ذلك ؟ ان السر في ذلك يرجع الى شعور أمريكا بأن فرنسا وألمانيا الغربية مستقلتان، وليس الحال كذلك مع إنجلترا .

بين أصحاب الملايين

من المفروض أن يتنازل رؤساء الوزارات والوزراء وكبار رجال الحكومة عن مراكزهم في الشركات حينما يتولون الحكم ، فهذا ماجرى عليه العرف والنظام فإذا ماخرجوا من الحكم استأنفوا عملهم في الشركات . البيوت المالية وغيرها ، مثال ذلك أن أنطوني ايدن كان مديرا لأحد البنوك في أثناء وزارة العمال وإن أليفر ليتلتون وزير المستعمرات في وزارة تشرشل ، كان يرأس شركة مالية كبرى قبل توليه منصب الوزارة . وحينما خرج من الوزارة تولى رئاسة مجلس إدارة شركة الصناعات الكهربائية ، وإن ويتلر وهو خارج الحكم كان يتولى منصبا كبيرا في شركة كورتولندز للحريير الصناعي .

وهكذا يعود هارولد ماكميلان الى «مؤسسة ماكميلانز» للنشر حينما ينتهى عمله كرئيس للوزراء . ولما سافر الى جلاسجو في نوفمبر ١٩٦١لقى خطابا في مأدبة أقيمت تكريما له وحضرها كبار رجال المال والصناعة في اسكتلندة ، وقد استطاع ماكميلان أن يجمع من هؤلاء الاثرياء مبالغ كبيرة من المال لدعم مالية حزب المحافظين . وحينما عاد الى لندن وجسه اليه النواب أسئلة عن هذه الزيارة ، وأبدى بعضهم نقده لرئيس الوزراء قائلا انه لا يليق بكرامة رئيس وزراء بريطانيا أن يذهب الى اسكتلندة ليجتمع الاموال لحزبه ، وقد استشعر ماكميلان الحرج وحاول التخلص من الاجابة .

وأخيرا رد ماكميلان بأن خطابه لم يسجل ولم يحتفظ أحد بصورة له ، وليس من الصعب علينا أن ندرك السبب في أن الخطاب لم يسجل ولم يرغب ماكميلان في الاحتفاظ بصورة له ، ذلك أن المتبرعين بالمبالغ الضخمة لحزب المحافظين من كبار رجال الصناعة وملوك المال الذين كانوا يضعون السياسة التي يسير عليها ماكميلان وكانهم يقولون للشعب البريطاني : نحن الحكومة ممثلة في شخص ماكميلان .

وقد كتب روبرت بيتمان في عدد ١٧ من يونيو من صحيفة «صنداي اكسبريس» متسائلا : هل ماكميلان مليونير ؟ ورد على ذلك السؤال قائلا : ان من يخرج الى انزهة في الريف المجاور الى لندن يجد قصرا ريفيا فخما محاطا بسياح كبير . هذا هو «بيرش جروف» قصر ماكميلان الريفي . فإذا عدت الى لندن واتجهت الى شارع ستراند فهناك بناء ضخم يضم مباني مؤسسة ماكميلانز ، ويملك هارولد واخوته جميع اسهمها البالغ عددها ٣٧٠ ألفا باستثناء ٥٠٥ سهم فقط ، وإذا أضفنا الى ذلك قيمة الممتلكات الاخرى تبين لنا أن هارولد ماكميلان وشقيقه دانيال ماكميلان يملكان

ثروة تزيد على أربعة ملايين جنيه استرليني " هذا بخلاف الاراضى والقصور التى تمتلكها زوجة ماكميلان وابنه .

وقد يقال ان هذا ماورثه الشقيقان . ولكن ذلك قول مردود ، ذلك ان موريس كروفورد ماكميلان ، والد هارولد ماكميلان ، حينما توفى عام ١٩٣٦ ترك ثروة قدرت بنحو ١١٢ ألف جنيه استرليني فقط .

ولا ننسى ان هارولد ماكميلان كان يوما ما مديرا لسكة حديد الغرب ، وحينما اُمتت حكومة العمال السكك الحديدية منحه تعويضا كبيرا . وهناك امتيازات كثيرة مستترة ، فمثلا سافر هارولد ماكميلان فى احدى المرات لزيارة اللورد هوم فى اسكتلندة ، وفى اثناء الرحلة طلب «الكيسارى» من ماكميلان ابراز تذكركه ، فما كان من ماكميلان الا ان أخرج من جيبه «مداية» تخول له حق السفر مجانا على السكك الحديدية البريطانية ، لانه كان مديرا سابقا لحدى شركات السكك الحديدية .

نفاذ ماكميلان من اليمينيين

لم يظهر بين النواب المحافظين فى عهد حكومة ماكميلان جناح يسارى يعارضه ، كما كان يقف هو فى شبابه لمعارضة ستانلى بولدوين ونيفيل تشمبرلين .

واذا كان ماكميلان قد نجا من هجوم يسارى فهو لم ينج من هجوم اليمينيين عليه . فحينما استقال اللورد سالسبورى من الوزارة ، بسبب اطلاق سراح الأسقف مكاريوس واعادته من سيشيل الى قبرص ، اخذ يشن هجوما عنيفا على الحكومة استسلامها للقوى الوطنية فى أفريقيا . وفى ١٧ من مارس سنة ١٩٦١ جرت مناقشة فى مجلس اللوردات وجه فيها سالسبورى كثيرا من السخرية الى ماكلويد الذى كان وزيرا للمستعمرات حينذاك ، قائلا انه كان يمثل دور لاعب «البردج» فى أثناء مفاوضاته فى روديسيا . وتبين السخرية هنا اذا علمت أن ماكلويد ، قبيل دخوله البرلمان ، كان يعمل مراسلا صحفيا لنقل أخبار بعثة «البردج» لحدى الجرائد الاسبوعية .

وقال اللورد سالسبورى ان ماكميلان كان قد أعطى ضمانا الى السير روى ويلنسكى، رئيس وزراء اتحاد روديسيا ونياسالاند ، بأن موضوع الانفصال (أى حق أحد الاقاليم الثلاثة وهي روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ونياسالاند فى الانفصال عن الاتحاد) لن يدخل فى دائرة اختصاص لجنة مونكتون (وهي لجنة التحقيق التى بعثتها الحكومة البريطانية الى الاتحاد) ولكنه كان يوعده الى ويلنسكى يرمى الى شئ آخر . وهذا ماأدركه المستولون فى روديسيا وكان سببا فى اثاره شكوكهم . وكان ويلنسكى يحظى بتأييد قوى فى دوائر المحافظين ، ولذلك فان حملة سالسبورى ضد ماكميلان فى مجلس العموم واللوردات سببت له الكثير

من المتاعب . كذلك كون جماعة من النواب المحافظين ما أطلق عليه اسم «جماعة كاتانجا» للمحافظة على مصالح الرأسمالية البريطانية في هذه المنطقة وقد اضطر ماكميلان لاسترضاء هذه الجماعة على الرغم من اعلانه مرارا أنه يرفض سياسة الاسترضاء .

ولقد كان أشد ناقدى ماكميلان عنفا هو اللورد لامبتون ، فقد أخذ يشن الهجوم عليه في البرلمان وفي صحف نيفر بروك . وحينما وقع اختيار ماكميلان على هارولد واتكنسون ليتولى وزارة الدفاع ، هاجمه لامبتون قائلا : ان ماكميلان يعمد الى اختيار الوزراء الذين لا يعارضون سياسته بل يطيعونه طاعة عمياء ، وإذا كان قد وضع واتكنسون في وزارة الدفاع ، لسيسيطر على هذه الوزارة كما سيطر على وزارة الخارجية ، فهذه سابقة خطيرة ، اذ انها تضع في يدي رئيس الوزراء سلطات أكبر من السلطات التي كان يتولاها السير ونستون تشرشل .

وكان لامبتون من بين أولئك الذين يقولون ان ماكميلان على استعداد لعمل كل مايرضى أمريكا . وقد كتب في جريدة «الصنداي اكسبريس» في عددها الصادر بتاريخ ١٨ من يونيو عام ١٩٦٠ يقول ان ماكميلان ما ان تولى الوزارة حتى أخذ يعمل على اكتساب ود أمريكا بأى ثمن ، وكانت نتيجة ذلك اجتماع برمودا ، الذي أسفر عن تضحية بريطانيا باستقلالها وبسياساتها الخارجية ، كل ذلك لأرضاء أمريكا .

خمس سنوات في منصب رئاسة الوزارة

في ١٠ من يناير سنة ١٩٦٢ أكمل هارولد ماكميلان خمس سنوات في رئاسة الوزارة ، ويرى البعض انه اذا قدر له النجاح في الانتخابات القادمة فسوف يضرب الرقم القياسي بين رؤساء الوزراء البريطانيين في عهد السلم . وتختلف تقديرات المعلقين ، ولكن الكل يجمع على أنه قد بقى في الحكم مدة أطول مما كان يتصوره أى شخص ، فقد تولى الحكم بعد كارثة السويس عام ١٩٥٦ ، ولا يزال الى الآن .

ولقد نشرت صحيفة «الجارديان» مقالا افتتاحيا قالت فيه ان مهمة ماكميلان حينما تولى رئاسة الوزارة كانت انقاذ بريطانيا من عواقب مفامرة السويس ، واذا كان من المقرر انه اشترك اشتراكا كليا في هذا العمل الجنوني مع بقية وزارة انطوني ايدن ، فلا شك في أن سياسته في الأشهر التي أعقبت فشل السويس ، كانت سياسة ناجحة . ولقد تعلمت بريطانيا درساً من مفامرة السويس ، وهو أنها لن تتصرف في المستقبل باعتبارها دولة كبرى مستقلة ، الا برضاء الولايات المتحدة يومافقتها . انه درس قاس على مثل ماكميلان ، ولكننا نشك في أنه تعلمه

ولقد تبلورت نتائج هذا الدرس القاسى فى الفشل الذى أحاط بقذفهـ
«السهم الأزرق» وفشل المحاولة التى قام بها ماكميلان للتوفيق بين الولايات
المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وفشل السياسة الاقتصادية البريطانية .
كل هذه معا أدت الى نتيجة واحدة ، وهى أن بريطانيا لم يعد لديها أمل
فى أن يكون لها تأثير حقيقى فى توجيه السياسة العالمية .

كذلك لم يعد أمام بريطانيا أمل فى الاعتماد على اقتصادها الوطنى
مالم يتم التفاهم بينها وبين السوق المشتركة .

ان فشل ماكميلان الحقيقى لا يكمن وراء سياسة الدولة الخاطئة ؛
بل يرجع الى أنه عجز عن تحديد أهداف بريطانيا ومثلها العليا ، ان شعاره
القومى لا يختلف عن شعار «جيزو» أحد سياسى فرنسا فى القرن التاسع
عشر وهو «جلب الثراء» .

وأعدت جريدة «صنداي بيكتوريال» قائمة بما لـماكميلان وما عليه
فقالـت : لقد زعم ماكميلان عام ١٩٥٧ انه سوف يقضى على البطالة وكانت
البطالة حينذاك ٣٨٣ ألفا ، أما اليوم (ديسمبر ١٩٦١) فهى ٣٨٩ ألفا .

وفى بيانه الانتخابى عام ١٩٥٩ أعلن أن بريطانيا لم يسبق لها أن
بلغت درجة الرخاء والاستقرار الاقتصادى التى بلغتها الآن ، ولكن الأسعار
أخذت فى الصعود المطرد ، واضطر ماكميلان لتخفيض اعتمادات بعض
المشروعات الصحية .

وقد وعد ماكميلان بأن يجدد نشاط الصناعة البريطانية ، ولكن
المنتجات الصناعية البريطانية تبلغ فى الوقت الحاضر سُدس اجمالى
الصادرات الصناعية العالمية فى حين كانت من قبل ربع هذه الصادرات .

وفى سنة ١٩٥٩ قرر أن بريطانيا تقدم التأييد الكامل للتوفيق
والتصالح متمشية فى ذلك مع شعارات الامم المتحدة ، ولكن وزير خارجيته
اللورد هيوم ، شن منذ عهد قريب هجوما عنيفا على الأسس التى قامت
عليها الامم المتحدة .

وأخذ ماكميلان يسوف فى منح قبرص استقلالها بحجة أن الاتراك
واليونانيين سوف يذبح بعضهم بعضا ، ولكن قبرص استقلت أخيرا دون
أن تحدث هذه المذابح .

وفى الوقت الذى كان فيه سالازار دكتاتور البرتغال يذبح الرجال
والنساء والأطفال بلا رحمة فى انجولا ، بعث ماكميلان وزير خارجيته
الى البرتغال فى بعثة «صدقة وود» .

وكان وزير مستعمراته لينوكس بويد قد أوشك أن يدبر مذبحة
فى نياسالاند ولكن ماكميلان أطلقه بحملته ورفعته الى مراتب النبيل .

وكان ماكميلان ينفى نفيا قاطعا أن القاذفات الأمريكية تحلق فوق
بريطانيا محملة بالقنابل الهيدروجينية ، ولكن لما ضيق عليه أعضاء البرلمان
الخناق استطاعوا أن ينتزعوا منه الحقيقة المفزعة .

وخير ما قيل عن ماكملان هو ما كتبه هارولد ويلسون اذ قال : ان هؤلاء الذين يمثلون بريطانيا الارستوقراطية يجب ان يتذكروا ان عصر بريطانيا الارستوقراطية قد انتهى ، ونحن الآن في ظل حكومة تعيش على اقتراض المال وتحاول مجازاة سير الزمان .

وكتب اللورد الترنشام مقالا مسهبا في صحيفة «الديلي اكسبريس» جاء فيه مايلي :

ان سياسة ماكملان الخارجية اشد عرضة للنقد من سياسته الداخلية . حقيقة أنه تخلص من كثير من الحماقات الجنونية التي سرت له الاشتراك في مغامرة السويس الخادعة ، ولكنه لا يزال يسعى الى المجد دون أن تكون لديه القوة التي تبلغه هدفه .

وفي فترة الركود في انتاج الاسلحة النووية عمدت الدول الى تقوية أسلحتها التقليدية ، ولكن ماكملان اخسأ يجرى التخفيض في الجيش البريطاني حتى هبط بالدبلوماسية البريطانية الى درجة مزعجة من الضعف وأسوأ ما في ذلك أنه ضحى بالخدمة العسكرية الاجبارية في سبيل كسب أصوات الناخبين .

الزعيم المحزن

من الصعوبة بمكان أن نجد وجها للشبه بين هارولد ماكملان والرئيس الأمريكي الشهير ابراهام لينكولن ، ولكن ماكملان يحاول التشبه بلينكولن على الرغم مما بينهما من بون شامع . ففي المؤتمر السنوي للنقابيين المؤيدين لحزب المحافظين الذي عقد في ١٩ من مارس ١٩٦٠ وجه ماكملان خطابا للمؤتمرين استشهد فيه بالعبارة المشهورة التي وردت على لسان لينكولن « قد تستطيع أن تخدع جميع الناس في بعض الاوقات ، وقد تستطيع أن تخدع بعض الناس في كل الاوقات ، ولكنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس في جميع الاوقات »

والغريب أن ماكملان الذي استشهد بهذه الحكمة الخالدة يسعى الى العمل بنقيضها ، فهو يحاول أن يخدع كل الناس في جميع الاوقات !

ان ماكملان لم يشترك في المؤتمر السابق للنقابيات ، ولكنه بعث اليهم برسالة ذكر فيها أنهم « طليعة الجيش الظافر » وكان يقصد بذلك اعدادهم للحملة الانتخابية ، ولما فاز في الانتخابات وجه اليهم كلمة شكر على مساهمتهم في تحقيق النصر للمحافظين ، كذلك وجه كلمة شكر الى رجال الاعمال وغيرهم من الرأسماليين الذين ساهموا بأموالهم في حملة الاعلان الضخمة التي سبقت الانتخابات العامة .

ولكن هؤلاء النقابيين ، الذين أحرزوا النصر لماكملان وحزب المحافظين في الانتخابات العامة ، لم يفوزوا بأكثر من عبارات الثناء ، ذلك

أن هارولد ماكميلان وحزبه لم يهيئوا لهم مقاعد في مجلس العموم ، ولو كان ماكميلان حقا يؤمن بالنقابات والنقابية لأفرد للنقائبيين المحافظين دوائر انتخابية خاصة في التنظيمات الحزبية التي يجريها المحافظون قبل الانتخابات ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

لننتقل الى ناحية أخرى ، وهي تشكيل ماكميلان لوزارته الجديدة فحينما أراد ماكميلان اختيار وزرائه ، انتقاهم جميعا من خريجي كلية إيتون ، حتى وزير العمل نفسه من طلبة إيتون السابقين ، أما النقابيون فلم يكونوا موضع تفكيره حين اختيار وزرائه .

وليس هذا بعجيب ، فحزب المحافظين هو حزب أصحاب المشروعات لاحتزب الاجراء . وهو يصير على الا يكشف دفتاره خشبية أن يفصح امر الانتخابات الضخمة التي تقدمها انراسمالية المسيطرة لحزينة حزب المحافظين .

وفي أثناء الخطاب الذي ألقاه ماكميلان في مؤتمر النقابات عام ١٩٦٠ استنكر الرأي القائل بأن هناك تعارضا أساسيا بين النقابية وبين حزب المحافظين ، وحجته في ذلك أن المحافظين كانوا طوال تاريخهم يعطفون على العمال ويؤيدون حقهم في التنظيم النقابي ، وضرب مثلا لذلك بأن القوانين التي تحرم الاجتماعات التي يعقدها العمال الفيت على أيدي حكومة اللورد ليفربول المحافظة عام ١٨٢٤ .

وردنا على ذلك هو أن ماكميلان اذا كان حقا متعمقا في التاريخ كما يشيرون عنه ، فلا ندرى أى كتب يقرأ . فلو أنه عنى بفراءة تاريخ الحركة النقابية في بريطانيا لأدرك أنها كانت سلسلة من الصراع بين أصحاب الأعمال من المحافظين والعمال الذين يخوضون المعركة تلو المعركة ضد هؤلاء المحافظين للحصول على الكفاف . ولو أنه كلف نفسه بعض المشقة وقرأ تاريخ سكة حديد الغرب في بريطانيا ، وهي الشركة الكبرى التي كان هو مديرا لها ، اذن لأدرك أن مديري هذه الشركة من المحافظين رفضوا بأصرار الاعتراف لعمال الشركة بحق تكوين نقابة ، ولم يفعلوا ذلك الا مرغمين بعد الاضراب الذي حدث عام ١٩١٠ . وليذكر ماكميلان ان أعضاء مجلس العموم من المحافظين ظلوا طوال قرن كامل يعتبرون نقابات العمال عدوهم الطبيعي . واذا أردت أن تعرف موقف المحافظين على حقيقته في الوقت الحاضر فما عليك الا مراقبة مايفعله المحافظون حينما يشار النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال . واذا كانت نقابات العمال على شيء من القوة في الوقت الحاضر فان هذا لا يرجع الى المساعدات التي تلقتها من حكومات المحافظين ، ولكنه يرجع الى كفاحها المتواصل لعدة أجيال .

أما وقد اتضحت الحقيقة فان ماكميلان اما أن يكون جاهلا بالتاريخ وأما انه يفترض في مستمعيه من النقائبيين الجاهل بحيث لا يستطيعون اكتشاف أكاذيبه .

لقد أخذ ماكميلان يزهو أمام أولئك الأجورين من النقائبيين بأن حكومته سوف تحقق «العمالة الكاملة» وأخذ في العهد الاخير يردد هذه

العبارة في مجلس العموم . ولننظر الى موقفه السابق في مجلس العموم قبل أن يصبح رئيسا للوزارة .

لقد كان في ذلك الوقت يلقي الخطب الرنانة قائلا ان العمالة الكاملة تتحقق اذا لم ترتفع الاسعار واذا لم يكن هناك تضخم نقدي . ولكن ما الذي يجرى في الوقت الحاضر ؟ ان العمال البريطانيين يعلنون الاضراب بين حين وحين مطالبين بزيادة الاجور لامن أجل الرفاهية ولكن لمواجهة ارتفاع اجور المساكن الذي جاء نتيجة لقانون الاجارات الجديد .

ولنا أن نتساءل : أين كان هؤلاء النقابيون المحافظون (المأجورون) يوم قدمت حكومة ماكميلان قانون الاجارات الجديد الى مجلس العموم ؟ وهل استشارهم ماكميلان في هذا الأمر ؟ أو هل استشار أية هيئة عمالية ؟

ولقد صرح ماكميلان لهؤلاء النقابيين المأجورين بأن الانتاج البريطاني في ازدياد مطرد نتيجة للدقعة والنشاط اللذين بعثتهما فيه حكومة المحافظين ! ولكن ، الا يعلم ماكميلان ان الاقتصاد البريطاني في الوقت الحاضر يهتز من ضعف الأسس التي أقيم عليها ؟

ان ماكميلان نفسه الذي ادلى بهذه التصريحات عاد بعد عامين ليعلم ان بريطانيا لن ترفع اجور عمال السكك الحديدية ولا عمال النقل البري ولا عمال البريد ، لانه ليس لديها المال اللازم لتغطية هذه الزيادة .

ولقد ظل المحافظون يوجهون السياسة الاقتصادية البريطانية من غير تخطيط طوال عشر سنوات توالى فيها على البلاد الازمات المالية والاقتصادية . وأخيرا استيقظ ماكميلان أو على الأقل ايقظته من سباته اجراس الخطر فبدأ يشكل هيئة للتخطيط .

وما دمنا نتحدث عن زعامة ماكميلان فلنتعرض لنقطة هامة وهي مدى قدرته الخطائية ، وماكميلان من هذه الناحية لا يمكن ان يوضع في الكفة الراجحة . ان القدرة الخطائية تتوقف على مدى ايمان الخطيب بما يقول ، وماكميلان في هذه الناحية لا يخرج عن دور الممثل ، وقد يكون بارعا ولكنه لن يكون مصدر الهام .

لقد ألقى ماكميلان خطابا في المؤتمر الوطني لشباب المحافظين بتاريخ ٢٥ من فبراير عام ١٩٦١ وفي هذا الخطاب قدم عرضا تاريخيا لحزب المحافظين وما ساهم به من اصلاحات هائلة اجتماعية وسياسية واقتصادية وما اداه من خدمات للعمال في المصنع والمنجم والحقل .

ولكن ماكميلان هو نفسه الذي كان يشن هجوما عنيفا على حزب المحافظين في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية متهما الحزب بتقصيره المؤلم في اداء الخدمات الاجتماعية وفي رعاية الطبقات العاملة . فأى الماكميلان تصديق : ماكميلان عضو مجلس العموم في فترة ما قبل الحرب ، أو ماكميلان رئيس الوزراء في فترة ما بعدها ؟

لقد عرض ماكميلان في خطابه أمام شباب المحافظين لسؤال دقيق،

وهو لماذا لم ينضم الى حزب العمال في اثناء نشأته الاولى ؛ ورد على ذلك قائلا : ان الاشتراكية الماركسية غريبة على انجلترا ، وان كارل ماركس نفسه ليس بريطانيا .

وقياسا على ذلك، فعليه ان يلفظ الكتاب المقدس ، لانه ليس انجليزيا وأن يكف عن اعتبار دزرائيلي نبى السياسة البريطانية ، لانه ليس من عنصر بريطاني .

لقد ذكر ماكميلان في خطابه ان حزب المحافظين في بريطانيا كان طليعة التقدم في خلال القرن التاسع عشر . ونحن نساله أيضا ، ألم يقرأ شيئا عن نشاط التقدميين في القرن التاسع عشر من أمثال كارل ماركس وفردريك انجلز واترايهما ؟

اننا لاندري : بماذا كان يرد ماكميلان ؟ ولعله يحاول مع شباب المحافظين ماحاوله مع النقابيين الماجورين من تطبيق «حكيمته» القائلة: «تستطيع أن تتخدع جميع الناس في كل وقت» .

رجل أوروبا المريض

في يوليو ١٩٦١ أصبح من الواضح أن بريطانيا تنزلق مرة أخرى نحو أزمة اقتصادية ، ففي ٢٥ من يوليو وقف وزير المالية سلوين لويد ، على منبر الخطابة في مجلس العموم ليعلن البيان الخاص بهذه الازمة ، ويقرر أن هذا هو ثالث عام يتبين فيه العجز في ميزان المدفوعات ، وإذا وازنا بيان سلوين لويد عن الحالة الاقتصادية بالبيان الذي قدمه ماكميلان في الحملة الانتخابية نجد الفرق كبيرا بين الحالتين ؛ فقد هبط احتياطي بريطانيا من الذهب والدولار بمقدار ١٦٤ مليون جنيه استرليني في الشهور الستة السابقة . وقدم سلوين لويد اقتراحات من أهمها أن يجري تخطيط اقتصادي تشرف الدولة على تطبيقه . والغريب أن المحافظين ظلوا سنوات كثيرة يسخرون من فكرة التخطيط الاقتصادي ، فماذا هم قائلون اليوم ووزير ماليتهم يدعو الى التخطيط ؟

وتحدث سلوين لويد في بيانه عن الإجراءات التي يجب اتخاذها للإشراف على الاقتصاد الرأسمالي وعلى الأرباح وخاصة الأرباح الناتجة عن المضاربات وغيرها من وسائل التهرب من الضرائب ، وطالب بتخفيض عام في المصروفات وخاصة ميزانية الدفاع قائلا : ان الثمانين مليون جنيه استرليني التي تنفق سنويا على التزامات بريطانيا في حلف الاطلنطي وبخاصة ماينفق على الاحتفاظ بقوات بريطانية في ألمانيا يجب أن توقفت عند حدهم . وخلص من ذلك كله الى أن المبالغ الضخمة التي يستهلكها بند المصروفات « تؤثر تأثيرا سيئا على ميزان المدفوعات ، ويجب اتخاذ اجراء بشأنها في الميزانية التالية » .

هذه وغيرها هي الاجراءات التي اقترحتها الحكومة لمعالجة الازمة

المالية والاقتصادية • وفي أثناء مناقشة هذه الميزانية في مجلس العموم تحدث هارولد ويلسون باسم المعارضة فقال : من الغريب أن يتحدث أينا اليوم وزير المالية بهذه اللهجة المحزنة في حين أن رئيس وزرائه كان قد أعلن في أثناء الانتخابات أن الاقتصاد البريطاني لم يكن يوماً ما أسلم منه اليوم ، وإن التقد البريطاني ثابت وميزان المدفوعات قوى •

والقي ويلسون عبء المسئولية كلها على عاتق ماكملان قائلاً : إنه هو الذي غرر بالامة ودفع بها الى التواكل ، وقال ويلسون في خطابه :

حينما تولى ماكملان رئاسة الوزارة ظهر على شاشة التليفزيون ليوجه حديثاً الى الأمة بأنه سوف يعمل على استعادة عظمة بريطانيا ولكنه اليوم قضى على سلامة اقتصادياتنا وعرضها الى اشد الاخطار ، ونحن الآن مشرفون على حالة نستحق معها تلك الوصمة ، التي وصف بها القيصر نيقولا الامبراطورية العثمانية المتداعية ، اذ قال : « انها رجل أوروبا المريض » .

وأنا لالقي القول جزافاً كما انه ليس من نسج الخيال • فان احدى المجلات الألمانية الكبرى نشرت مقالا افتتاحياً عن بريطانيا تحت عنوان : « رجل أوروبا المريض » وأنا لا اقول أن البريطاني قد فقد حيويته او قدرته على الابداع والابتكار ، ولكن الخطأ يرجع الى افتقارنا للرعاية الملهمة والدعوة الى الخدمة العامة والتضحية بالمصالح الفردية في سبيل المصلحة الجماعية تلك هي الصفات اللازمة ولكن الحكومة عاجزة عن اتخاذها .

ووقف ماكملان للرد على حملة هارولد ويلسون وقد وجد صعوبة كبيرة في اعداد الرد المقنع ، ولكنه قرر أن ما قاله في سبتمبر عام ١٩٥٩ كان صحيحاً في حينه ، وإن ماقلب ميزان المدفوعات رأساً على عقب هو المتاعب الخارجية التي لادخل لبريطانيا فيها ، لان بعضها نشأ من التأمين وهبوط أسعار البترول • وأخيراً لجأ الى العبارات المزخرفة التي لا تفنى عن الازمة الاقتصادية شيئاً . وبعدها انتقل الى السخرية من وزارة العمال وهو موضوع معاد مكرر كان ماكملان يلجأ اليه كلما أعجزته الحجة وأعوذه الدليل •

ولقد كان ماكملان في نقده اللاذع لحكومة العمال يتحدث دائماً عن موضوع التأمين وفشله • ولكن هل فشل العمال حقاً في موضوع التأمين ؟ وهل العمال وحدهم أصحاب فكرة التأمين ؟

لقد تم تأمين السكك الحديدية في أثناء الحرب ، وكانت فكرة تأمين هذا المرفق مبدأ يدين به تشرشل قبل ذلك بكثير ، بل كان يؤمن به جلادستون من قبله • ولو كان هارولد ماكملان رئيساً للوزراء عام ١٩٤٥ أي بعد الحرب مباشرة لما كان في وسعه الا أن يؤم السكك الحديدية •

أما عن تأمين مناجم الفحم فقد كان هذا رأى لجنة ريد ، ولم يكن أمام هذه اللجنة الا أحد البدلين ، فاما أن تؤم الفحم وأما أن تعيد تنظيمه على أن تتلقى صناعة استخراج الفحم اعانة حكومية ، فاختارت الامر الاول .

وما طبق على الفحم طبق على صناعة الكهرباء والغاز في صناعات كان ماكميلان قبل الحرب قد طالب بأنها يجب أن تضم الى الملكية العامة .

ولنا سؤال هنا ، وهو : اذا كان حقا ما يقوله المحافظون من أن التأميم قد فشل فشلا تاما ، فلماذا لم يلغوا تأميم كل ما أممته حكومة العمال ؟ .

ان ماكميلان كان من أعنف ناقدى حكومة العمال في موضوع التأميم وحينما تولى وزارة الصحة والاسكان وتولى الاشراف على بناء المساكن طبقا للمشروع الفردى ، أخذ يزعم بأنه استطاع فى أثناء توليه المنصب أن ينشئ ٣٠٠ ألف مسكن ، ولكن يلاحظ هنا أنه منذ تولى المشروع الفردى عملية الاسكان نقص عدد المساكن المنشأة الى حد كبير .

وكان المحافظون يعارضون تأميم الخدمات الصحية وإنشاء ما يسمى بدولة الرفاهية أو حكومة الخدمات الاجتماعية ، ولكنهم حينما تولوا الحكم لم يستطيعوا إلغاء تأميم هذه الخدمات خوف اثاره الرأى العام . ومعنى ذلك ان الرأى العام كان يؤيد عملية التأميم .

فاذا انتقلنا الى السياسة الخارجية نجد أن ماكميلان ، بعد أن قضى فى رئاسة الوزارة خمس سنوات ، قام بزيارة لاديناور فى بون . وقالت صحيفة « الديلى ميل » حينذاك ، ان ماكميلان ذهب الى ألمانيا ليبلغ أديناور أن بريطانيا أصبحت عاجزة عن الاتفاق على قواتها المربطة فى ألمانيا . وقد أبدى أديناور استعداده لمساعدة بريطانيا بشراء أسلحة بريطانية وهكذا أصبحت ألمانيا بعد خمسة عشر عاماً من هزيمتها الساحقة ، فى مركز يسمح لها باقراض بريطانيا والمساهمة فى تفريج أزماتها المالية . لا ، بل ان بريطانيا العظمى فى عهد ماكميلان لم تستتفك مد يدها الى سويسرا الصغيرة لتقرض منها المال .

وفى الفترة التى قضاها المحافظون فى الحكم أنفقت بريطانيا على الدفاع ١٦ ألف مليون جنيه استرليني . ومع ذلك لم تستطع اعداد أى وسيلة ناجحة للدفاع عن نفسها ضد الحرب النووية ، ويكفى ان تنطلق الصواريخ حاملة عددا من القنابل الهيدروجينية لتدمر بريطانيا كلها .

والحقيقة أن بريطانيا أصبحت ذنبا لأمريكا ، وليس هارولد ماكميلان فى نظر جون كيندى ، بأكثر من ولتر أولبرخت فى نظر نيكيتا خروشوف بل ان قطاعا من الرأى العام العسكرى فى أمريكا يرى أن انجلترا ليست أكثر من قاعدة فى غرب أوروبا وأنه من الممكن الاستغناء عنها عند اللزوم .

والرأى السائد هو أن أمريكا قد ألزمت بريطانيا بالانضمام الى السوق الأوروبية المشتركة حتى تصبح عضوا فى الجهاز الاقتصادى لغرب أوروبا ، والذي حفز أمريكا على ذلك هو أغراض دفاعية محضة .

وإذا ما انضمت بريطانيا الى السوق المشتركة فإن استقلالها يصبح فى زوايا النسيان ، ويصبح مجلس العموم البريطانى الحريق هيئة نيابية اقليمية للتشريع المحلى فقط .

ولقد كتب جون جونز مقالا في صحف «بيفر بروك» تحت عنوان « آخر رئيس وزراء » ولم يكن هدف الكاتب أن يكتب عن بريطانيا وقد دمرتها الحرب النووية ولكنه يكتب عن بريطانيا وقد فقدت هيبتها وسمعتها ومركزها بحيث أصبح رئيس وزرائها وقد جرد مما كان له من أهمية دولية . ويقول الكاتب : ان أول رئيس وزراء يتناوله هذا الحرمان هو هارولد ماكميلان ، اذا قدر له أن يبقى في منصبه بعد الانتخابات الجديدة .

وعلى أية حال فهذه تكهنات عن المستقبل ، أما عن الحاضر فان هارولد ماكميلان هو بحق السياسي الذي لعب دورا هاما في الحوادث التي أدت ببريطانيا الى أن تصبح « رجل أوروبا المريض » .

السوق المشتركة أو الكومنولث

في آخر يوليو ، قبيل العطلة البرلمانية الصيفية ، وقف ماكميلان ليلقى في مجلس العموم بيانا عن سياسة الحكومة البريطانية تجاه المجتمع الاقتصادي الاوربي (السوق الاوربية المشتركة) . وقد أعلن ماكميلان أن الحكومة قد استقر رأيها على تقديم طلب للانضمام للسوق . وكان هذا البيان غير متوقع ولذلك ازدحم المجلس بالزائرين للاستماع الى ذلك الخطاب التاريخي .

وقد جاء في خطاب ماكميلان ما يلي :

ان العلاقات المستقبلية بين السوق الاوربية المشتركة والمملكة المتحدة والكومنولث وبقية أوروبا الغربية هي مسائل ذات أهمية حيوية بالنسبة لبريطانيا ، بل بالنسبة لجميع بلاد العالم الحر . ان هذا موضوع سياسي بقدر ما هو موضوع اقتصادي ، ومع ان معاهدة روما ذات صبغة اقتصادية فلها أيضا هدف سياسي كبير ، وهو تعزيز الوحدة والاستقرار في أوروبا الغربية ، وهو عامل حيوي في الكفاح من أجل الحرية والتقدم . والعالم الآن يتجه نحو التكتل والعمل المشترك بين مجموعة من الدول من أجل الصالح المشترك . وما دام الامر كذلك فمن واجبنا أن نساهم في تعزيز وحدة أوروبا ، وأن نرتبط معها بأوثق الروابط .

ولكن ينبغي أن نفهم أنه اذا كان ارتباطنا بأوروبا سوف يسفر عن فسخ العلاقات بيننا وبين الكومنولث ، فالحسارة أكبر من الكسب .

ثم انتقل الى الميزات التي تجنيها بريطانيا من الانضمام الى السوق الاوربية المشتركة ، فقال : ان هذه السوق الكبرى سوف تضم نحسب ثلاثمائة مليون نفس من الشعوب ذات الاقتصاد المتقدم ، وهذا مما يؤدي الى توسع اقتصادي كبير ، وإلى زيادة الطلب على منتجات كبيرة الكمية من بلاد العالم الأخرى ، وهذا سوف يضاعف حجم التجارة الدولية ، وينتج آفاقا جديدة امام البلاد المتخلفة .

ولكن لما كانت مصالح بلاد الكومنولث في الاعتبار الاول فلن تقدم أية حكومة بريطانية بإجراء اتفاق مع بلاد السوق المشتركة الا بعد أن تجرى محادثات سابقة مع بلاد الكومنولث لمراعاة مطالب هذه البلاد ، كما تجرى محادثات مع بلاد منطقة التجارة الاوربية الحرة في الدول السبع، وبجانب ذلك كله حاجات الزراعة البريطانية .

وتقديرا لكل هذه الاعتبارات فان الحكومة البريطانية قد قررت أن تتقدم بطلب انضمام الى السوق المشتركة استنادا الى المادة ٢٥٧ من معاهدة روما مع الاحتفاظ برعاية مصالح المملكة المتحدة والكومنولث ومنطقة التجارة الاوربية الحرة .

والسؤال الآن : كيف تستطيع الحكومة البريطانية الانضمام الى السوق المشتركة مع حماية مصالح الكومنولث وحماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟ .

لقد لزم هيو جيتسكيل، زعيم العمال، الصمت، ووقف انطوني فل، أحد النواب المحافظين ، ليقول لماكيلان ان بيانه هو أركان المجلس هزا عتيفا ، وأن ما هو قادم عليه يجعل رئيس وزراء بريطانيا كارثة وطنية. وهنا ثار ماكيلان وحاول ان يصدر أمره الى النائب بالجلوس ، ولكن العضو المحافظ رفض قائلا : ليس من حقك أن تصدر لى مثل هذا الامر ، انه من حق رئيس المجلس فقط .

ومضى العضو يقول : الا يعلم رئيس الوزراء انه يقام بمصالح ٦٣٠ مليونا من أبناء الكومنولث ، وأن هذه أكبر كارثة عرفتها بريطانيا منذ أجيال ؟ الا يعلم رئيس الوزراء انه من المستحيل ، في ظل معاهدة روما الحالية ، حماية المنتجات الزراعية البريطانية ؟ وفي هذه الحالة هل رئيس وزراء بريطانيا لديه ما يكفي من النفوذ لكي يستبدل بمصاهرة روما معاهدة أخرى تكفل حماية مصالح الكومنولث والمنتجات الزراعية البريطانية ؟ .

وفي الوقت الذي واجه ماكيلان هذه العاصفة قابلته عاصفة شديدة أخرى ، وهي أن مائة من النواب المحافظين اعترضوا على الاجراء الذي كانت الحكومة تزمع اتخاذه بإرسال قنابل الى قوات الامم المتحدة في الكونغو . وكانت الحكومة قد أعلنت في برنامجها الانتخابي أنها سوف تقف دائما بجانب الامم المتحدة ولكن فريقا كبيرا من النواب المحافظين استطاعوا تكوين فريق برلماني لمعارضة أى اجراء يتخذ ضد كاتانجا ، وقد سميت هذه الجماعة « فريق كاتانجا » وقد اضطرت حكومة ماكيلان للاذعان لمطالبهم .

وفي مقابل اذعان ماكيلان لفريق كاتانجا أوقفوا حملة المعارضة ضده حين مناقشة السوق الاوربية المشتركة ، وهكذا استطاع ماكيلان بمنأوراته أن يتفادى مؤقتا موجة المعارضة القوية لمشروعه الخاص بالانضمام الى السوق الاوربية المشتركة .

ولكن كيف نجا ماكميلان من العاصفة ؟

لقد ضحى بالأمم المتحدة في وقت كانت في أشد الحاجة فيه الى التأييد ، لأنها لا تمر بأزمة عابرة ، بل بأزمة تاريخية بعيدة المدى ، هي أزمة تقرير مصير الحرية في الكونغزو والارتفاع به فوق مصالح الرأسمالية والاستثمارات الأوروبية .

التجارب النووية الروسية

والتفجيرات النووية السوفيتية في جزيرة كريسما

في ٣١ من أكتوبر سنة ١٩٦١ ندد ماكميلان في مجلس العموم بموقف الاتحاد السوفيتي اذا انسحب من مؤتمر جنيف لوقف التجارب النووية واستأنف تفجيراته في المتجمد الشمالي .

ولكن اذا كان ساخطاً على الاتحاد السوفيتي لاستئنافه التجارب النووية ، أيكف هو عن هذه التفجيرات أم يستأنفها ؟

لننظر الى موقفه أمام البرلمان . انه موقف الدكتور جيكل في صراعه مع المستر هايد ، ولننظر الى من لايهما تكون القلبه .

لقد مضى ماكميلان يتحدث عن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الاتحاد السوفيتي في حق الانسانية باستئنافه التفجير النووي في المنطقة القطبية ، ثم دار طويلا حول الموقف وانتهى بالقول الى انه لكي يمكن المحافظة على توازن القوى فان بريطانيا (وأمريكا) على استعداد لاستئناف التجارب النووية التي سوف تلوث الجو وتلوث لبن الاطفال كما فعلت التجارب السوفيتية .

وبعد فترة قصيرة اجتمع مع جون كنيدى في برمودا ، وكان من بين ما دارت حوله محادثاتهما العرض الذي تقدم به كنيدى اليه ، كي توافق بريطانيا على أن تستأنف أمريكا تجاربها النووية في جزيرة كريسماس بالمحيط الباسفيكي .

وفي ٨ من فبراير الماضي وقف ماكميلان ليعلم في مجلس العموم أن الحكومة البريطانية قد وافقت على طلب أمريكا باستخدام جزيرة كريسماس للتفجير النووي .

ولقد تحدث ماكميلان ، بعد عودته من برمودا ، عن «سباق التسلح النووي الرهيب» ولكنه من ناحية أخرى وافق على منح الفواصات الذرية الأمريكية التي تحمل قذيفة « بولاريس » قاعدة على ساحل اسكتلندة ، وهو بهذا العمل يساهم مساهمة فعالة في سباق التسلح النووي ، لأن كل غواصة ذرية تحمل قذائف تستطيع تدمير ١٢ مدينة بأكملها .

وقبل أن يختتم ماكملان خطابه وقف أحد أعضاء المجلس يساله :
إذا كان لابد من التجارب النووية الهيدروجينية فوق جزيرة «كريسماس»
أفليس من المستحسن تغيير اسمها حتى لا يقترب اسم رسول السلام
بالتفجيرات النووية ؟

بداية النهاية

في اوائل عام ١٩٦٢ القى ماكملان، امام شاشة التليفزيون، حديثا
سياسيا وقد علقت صحيفة « الديلي تلغراف » قائلة : لقد بدا ماكملان ،
وهو في سن الثامنة والستين . كأنه يصغر هذه السن بعشرين سنة، فهل
يا ترى جد جاد دولي سعيد اعاد اليه شبابه ، أو أن هذه مهارة جديدة
لخبراء التجميل الذين أعطوه على الشاشة من وسائل التجميل ما تتيحه
المساحيق والدهون لمثلة عجوز قبل أن تصعد خشبة المسرح ؟ .

ولكن هذا المظهر الزائف لم يخف على رجال الصحافة ، وبخاصة
معلق « الصنداي تلغراف » و « الازفر » اذ قررا أن ماكملان ، سواء
حينما ظهر على شاشة التليفزيون ليلقي حديثه السياسي أو حينما ذهب
الى اكسفورد ليلقى كلمته على الخريجين ، فإن الناظر اليه يشعر بأنه
رجل عجوز يسير بخطى سريعة نحو الفناء .

ولقد اجرت احدى هيئات الاحصاءات تجربة لمعرفة مدى اقبال اصحاب
أجهزة التليفزيون على مشاهدة ماكملان حين القاء خطاب سياسي هام
وجعلت التجربة تدور حول اجتماعه مع كينيدي في برمودا . وقد تبين لها
ما يلي :-

حينما بدأ الحديث كان مائة ألف جهاز تليفزيون مفتوحة على
القناة « ١ » .

وحينما بدأ الحديث عن الدول الناشئة في افريقيا وآسيا غادر
التليفزيون ٣٣٦ ألفا ، ولما بدأ يتحدث عن اجتماعه مع كينيدي غادر المكار
مائة ألف آخرون . وحينما بدأ يعلق على اجتماعه مع كينيدي قائلا : لقه
أجربنا أحاديث مشمرة ، لم يبق أمام أجهزة التليفزيون الا عدد قليل .

وتستخلص هذه الهيئة من تجاربها أن ماكملان لن يقدر له النجاح
في الانتخابات القادمة ، لانه لم يعد في استطاعته اجتذاب مستمعيه ولا
مشاهديه .

وليس هذا رأى هيئات الاحصاء فقط ، بل ان صحف المحافظين نفسها
لديها هذا الشعور، فقد كتبت «الصنداي تايمز» تقول انه من غير المحتمل
أن تبقى حكومة ماكملان بعد الانتخابات القادمة . وفي مناسبة أخرى علقت
الصحيفة نفسها على الموقف قائلة :

« في عام ١٩٥٥ طلب المحافظون من ونستون تشرشل أن يعتزل السياسة حتى يستطيعوا الفوز في الانتخابات ، ويبدو أنهم عام ١٩٦٣ سوف يتقدمون الى ماكميلان بالطلب نفسه ، على أمل أن يفوزوا في الانتخابات القادمة . ولن يكون المحافظون من الخشونة بحيث يطردون ماكميلان طردا ، ولكنهم سوف يزودونه بأحدى مراتب النبلاء ، ويهيئون له مقعدا في مجلس اللوردات حتى تتاح له الفرصة لكتابة مذكراته .

... لقد صرح ماكميلان مرارا بأنه لن يكتب مذكراته ، ولكن-الرأي العام في شوق لقراءة هذه المذكرات ، لا لأنها مليئة بالحوادث المثيرة ، كما هو الحال في مذكرات تشرشل، ولكنها على الأقل سوف تلقى ضوءا على ما كان ماكميلان يهرب من الاجابة عنه حينما يحرجه النواب في مجلس العموم . ولعله يطلع الرأي العام البريطاني على التاريخ السري لمغامرة السويس التي كانت خاتمة تاريخنا الإمبراطوري ، ولعله أيضا يطلعنا على أسرار رحلته الأخيرة الى موسكو وما جرى من أحداث بينه وبين خروشوف وميكويان ، ولعله أخيرا يطلعنا على ذلك السر العجيب ، وهو أن ماكميلان الشاب التقدمي الثائر الذي يجنح الى اليسارية ويدعو الى رعاية الطبقة الكادحة ، ينقلب الى محافظ يميني عريق ، ويصبح أمل أصحاب الألقاب وأرباب الجاه والثراء ، والمتحدث باسم الرأسمالية البريطانية النبالية التي صارت من المتناقضات الاجتماعية في النصف الأخير من القرن العشرين .

اذن فليكتب ماكميلان مذكراته ، لعل فيها عبرة وعظة لمن يخلفه على مقعده في « داوننج ستريت » .

تم الكتاب

فهرس

الصفحة	الموضوع
٢	تقديم
٧	مقدمة المؤلف
١١	في الطريق الى انجلترا
١٥	محافظ من الجناح اليسارى
١٦	الانجاء الى التخطيط
١٨	التمرد على الحزب
١٩	الطريق الوسط
٢١	حرب وما بعدها
٢٢	نحو الحرب الباردة
٢٥	برنامج الاسكان
٢٦	ظل القنبلة
٣٣	الضرب على وتر واحد مع مولوتوف
٣٤	ارباح السندات وامنية حالم
٣٦	مغامرة السويس
٤٢	بتار او ماكميلان
٤٤	سيد القلعة
٤٦	استراتيجية الرادع النووى
٥١	الدكتور جيكل ومستر هاند ذو الوجهين
٥٤	رحلة ماكميلان الى الاتحاد السوفيتى
٦٠	يسع رئيس الوزراء
٦٢	ريح التغيير تهب على افريقيا
٦٤	السير فى ركاب امريكا
٦٧	بين اصحاب الملايين
٦٨	نقاد ماكميلان من اليمينيين
٦٩	خمس سنوات فى منصب رئاسة الوزارة
٧١	الزميم الحزبى
٧٤	رجل اوربا المريض
٧٧	السوق المشتركة او الكومنولث
٧٩	التجارب النووية الروسية والتفجيرات النووية الامريكية فى جزيرة كوريسسماس
٨٠	بداية النهاية

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة لمقاولي

القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس في مناقصة عامة عملية انشاء كوبرى الرسوة بمدخل بور سعيد مكون من فتحتين متحركتين وأربع فتحات ثابتة من الخرسانة المسلحة ويرتكز على قيسونات خرسانية .

ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث) .. وذلك نظير مبلغ خمسة وعشرين جنيها وتقدم العطاءات باسم السيد/رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط والابحاث) في ميعاد اقضاء الساعة الثانية عشرة ظهرا يوم الاثنين ١٥ أبريل ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ثلاثة آلاف جنيه .. ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد او غير مصحوب بالتأمين المذكور .



مطالع الذار القومیه

۱۵۷ شایع مجید - روش الفرج

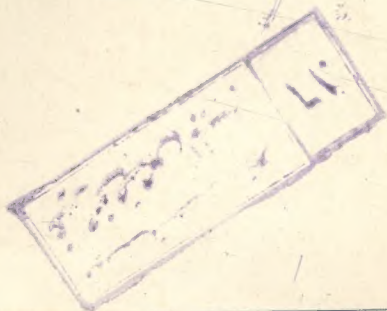
تلفیظ { ۴۰۷۵۳ - ۴۱۰۱۴
۴۰۸۱۴ - ۴۰۵۸۱ }



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عسكيد - روض الفرج

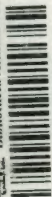
تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ }



العدد ٤٧

الثمن ١٢ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0681882